المنهج السليم

إلى طريق الله المستقيم

رؤية موضوعية لإرادة التغيير

لفضيلة الأستاذ الشيخ
عطية صقر
رئيس لجنة الفتوى بالأزهر «سابقا»

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة - بالقاهرة

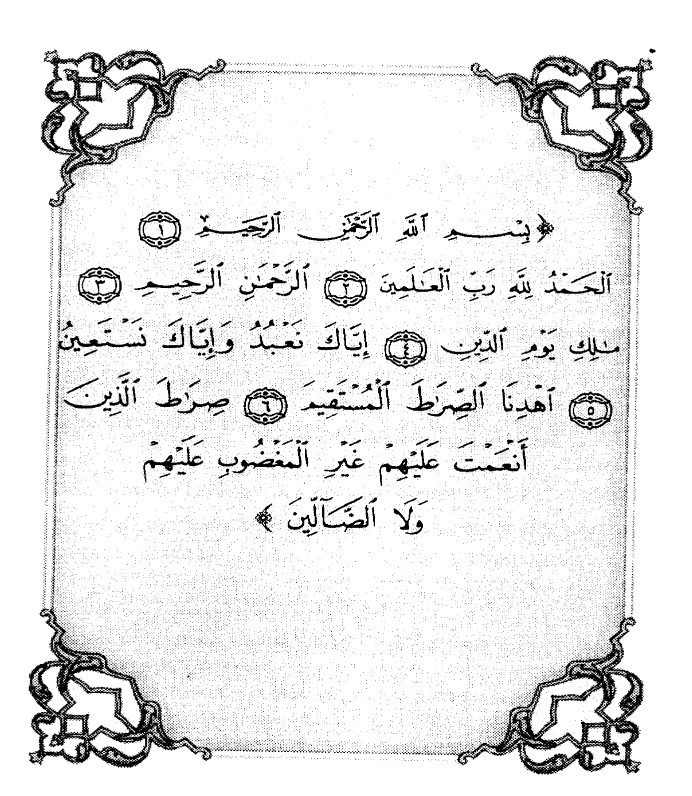
١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١ م

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة

مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم



القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ،ناصية شارع الجمهورية،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١



﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[المائدة: ١٥-١٦]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

«تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتي». [حديث شريف]

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف». [حديث شريف]

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. الإمام مالك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

لفضيلة الأستاذ أحمد السيد أحمد سعود

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهناك إجماع من علماء المسلمين والباحثين المنصفين على أن توفير الحياة الطيبة للمجتمع البشري لا يتم إلا بالقيم الرفيعة، التي يستقيم بها الفكر والسلوك، وليست هناك قيم أرفع وأصدق من القيم الدينية، التي جاء بها الرسل من لدن حكيم خبير، كما قال سبحانه لآدم عليه السلام حين أهبطه ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

وبحكم هذا القرار الإلهي، عاش المسلمون الأولون فترة طويلة من الزمان عيشة طيبة، فقامت لهم دولة مترامية الأطراف، تنعم بكل ألوان القوة والعزة، حتى جذبت أنظار العالم، وخطبت ودها كل الدول.

ولما تراخت صلتهم بالله حق عليهم الوعد، فعاشوا في ضنك،

وتخطفتهم الدول من حولهم، ثم استيقظوا أخيرًا، وتعالت أصواتهم بالعودة إلى الدين مرة أخرى، وهي يقظة محمودة، وأصوات مشكورة، غير أن الكثير منهم لم يقدم منهجًا سليمًا يمكن به تحقيق هذه الأمنية، وذلك نتيجة لتغلب العاطفة على العقل، ولعدم دراسة منهج الدعوة الإسلامية دراسة صحيحة، فحدثت بعض الانحرافات، وانتهزها الأعداء فرصة لمقاومة التيار الديني.

والأزهر الشريف، وهو الحفيظ على التراث الإسلامي، تعليمًا ونشرًا، والمؤسسة الدينية التي أدت دورها بصدق وأمانة في تاريخها الطويل، حريص كل الحرص على التجاوب مع الأحداث، وهداية الناس إلى الصراط المستقيم، فإلى جانب ما يقوم به من دراسات في معاهده وكلياته، وما يؤديه معلموه ودعاته من واجب التوعية والنصح والإرشاد، في كل المجالات، وبكل الوسائل، يخرج للناس دراسات تتناول قضايا العصر، وتبين معالم الطريق الصحيح للوصول إلى الغاية في أمن وسلام.

والكتاب الذي نقدمه الآن، هو حلقة من سلسلة هذا النشاط، يبين بعقلانية وموضوعية أفضل الطرق للعودة إلى الدين، على أساس من الحكمة التي أرشد الله إليها رسوله، والتجارب المستفادة من سيرة الدعاة والمصلحين.

وفضيلة الشيخ **عطية صقر**، مؤلف هذا الكتاب، تخصص في الدعوة والإرشاد، دراسة وممارسة، وله في ذلك مؤلفات عدة، من

أبرزها: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، والدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، والإسلام في مواجهة التحديات، ومنهج الإصلاح في دعوة محمد ﷺ.

وضح في هذا الكتاب «المنهج السليم إلى صراط الله المستقيم» الخطوط الرئيسية التي يجب أن يسير عليها الدعاة إلى العودة إلى الدين، وذلك من واقع دراسته المتخصصة، واطلاعاته الواسعة، وممارسته الطويلة للدعوة بوسائلها المتعددة.

وركز فيه على وجوب فهم الدين فهمًا صحيحًا، عن طريق الدراسة العميقة، والتلقي عن العلماء المختصين، وبين فيه الطريقة المثلى لإصلاح الأمة على هدى من الكتاب والسنة، وواجب كل قطاع من القطاعات التي تتولى مهمة الإصلاح، وأهمية التعاون بين كل الأجهزة، وذلك من أجل تفادي العقبات التي تعوق المسيرة، ومن أجل الوصول إلى الهدف بسلام.

نرجو الله أن يوفق القراء للعمل بما فيه، وأن يجعله شاهدًا لنا في القيام بواجب التبليغ، إنه سميع مجيب.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

أحمد السيد أحمد سعود

القاهرة في ربيع الأول ١٤١٢هـ

سبتمبـــــر ١٩٩١م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذه هي الطبعة الثالثة لهذا الكتاب الذي صدرت الطبعة الثانية منه بعنوان: «**المنهج السليم إلى صراط اللَّه المستقيم**» وهو يتضمن كلمات تعبر عن تصوري للوضع الحاضر للمسلمين، وما أراه بشكل إجمالي من حلول لمشكلاتهم، ليست كلها ابتكارًا واختراعًا، ولكنها مستمدة من القانون الإلهي الذي وضعه اللَّه سبحانه، وبلَّغه رسوله الكريم، لإسعاد البشرية في المعاش والمعاد، مع محاولة ربط النصوص بأحداث العصر، والتعبير عنها بلغته، بأسلوب مبسط يتناسب مع كل الأوساط.

أتقدم بها إبراء للذمة من واجب النصح وأمانة التبليغ، راجيًا من اللَّه سبحانه أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب.

عطية صقر

القاهرة في المحرم ١٤٢٢هـ

مارس ٢٠٠١م

تمهيد

من المعلوم أن كل إنسان له آماله وتطلعاته، وأمانيه ورغباته، تقوم جميعها، مع اختلاف بسيط في معانيها، على تعلق القلب بشيء غير حاصل يكون في تحققه خير تسر به النفس.

وهذا التعلق أمر ملازم للطبيعة البشرية، فالإنسان يشيب ويشيب معه الحرص والأمل كما ثبت في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه.

والشاعر الحكيم يقول:

وفي قبض كف الطفل عند ولادة دليل على الحرص المركب في الحي
وفي بسطها عند الممات إشارة ألا فانظروا أني خرجت بلا شي

وهذه التطلعات منها ما يستحيل تحققه أو يصعب إلى حد كبير، ومنها ما يمكن تحققه بسهولة أو صعوبة معقولة، وقد يعبر عن ذلك بألفاظ مناسبة.

فالأول يقال له التمني أو الطمع، والثاني يقال له الرجاء، ومن أدوات التعبير عن الأول في الغالب «ليت» وعن الثاني «لعل» في أحيان كثيرة.

ومن الأول قول الله تعالى على لسان الكفار يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢].

وقول الشاعر:

فقولا لها قولا رفيقًا لعلها سترحمني من زفرة وعويل

والعقل لا يمنع هذه التطلعات، ولا يدعو إلى التخلص منها تخلصًا تامًا، فهي لازمة لحياة الإنسان، بها يتحرك ويسعى ويعمل وينهض ويتطور، يقول الطغرائي:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

والدين كذلك لا يحرم الأمل ولكن يدعو إلى حسن استغلاله، فطلب المستحيل عبث؛ لأنه لا يتحقق إلا في الأحلام عند النوم، أو في اليقظة التي يسرح فيها الخيال ويعيش في لذة متوهمة كما يقول الشاعر:

منى إن تكن حقًا تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمنًا رغدًا

ومن أجل أن هذا النوع مرهق للأعصاب صارف عن الجد جاء النهي عنه.

فعن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ خط لهم خطًا مربعًا، أي رسم لهم شكل مربع، وخط وسطه خطًا، وخط خطوطًا إلى جنب الخط، وخط خطًا خارجًا ثم قال: «**أتدرون ما هذا؟**» قلنا: اللّه ورسوله أعلم، قال: «**هذا الإنسان**» للخط الذي في الوسط «**وهذا الأجل**» للخط المحيط به «**وهذه الأعراض**» للخطوط التي حوله «**تنهشه، إن أخطأه هذا نهشه هذا، وذلك الأمل**» ويعني الخط الخارج[1].

وهذا ما يعنيه قول القائل: الآمال تخترمها الآجال أما الأمل المعقول والمتوقع الحصول، وهو ما يغلب عليه اسم الرجاء فلا حرج فيه، بل يحث عليه الدين إن كان في خير، ولا يرضى بالتفريط أو الزهد فيه باسم القناعة بالقليل ما دام الكثير ممكنًا لا يؤدي إلى ضرر شخصي أو اجتماعي.

يقول النبي ﷺ: «**المؤمن لا يشبع من خير حتى يكون منتهاه الجنة**»[2].

ويقول: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى اللّه من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن**

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي وابن حبان.

بالله، ولا تعجز»[1].

ويقول: **«إذا سألتم الله الجنة فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى، فإن الله لا يتعاظمه شيء»**[2].

ويقول الشاعر:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

فالطمــوح مطلــوب، وعلــو الهمة يغـري بالسعي والكفاح للوصول إلى مرتبة الشرف والكمال، أو القرب منها على الأقل، ومحاولة تحقيق الآمال بدون ذلك هي سوء فهم لقانون الحياة وهداية الدين؛ لأن هذا يعني إلغاء قانون الأسباب والمسببات، ويعارض ما قررته النصوص من ترتب الجزاء على العمل، وما خالف هذا القانون فهو بيد الله وحده، الذي وضع السنن والقوانين الدينية والدنيوية، حيث تكون المعجزة أو الكرامة لمن اصطفاهم من عباده.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

وذلك في معرض ادعاء كل فريق أن له الجنة.

وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وفي هذا المعنى يقول الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، وإن قومًا خرجوا من الدنيا ولا عمل لهم وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

إن الله سبحانه لو شاء لنصر المؤمنين على الكافرين دون جهاد، لكنه مع ذلك شرع الجهاد فقال: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] وعندما قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] بين سبب ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ونصر الله معناه الإيمان به وتنفيذ أوامره.

ولا يصح أن يطلق على التعلق بالأمل دون عمل إلا اسم الطمع، قال تعالى عن الكافرين: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج: ٣٨] وفي هذا المعنى يقول أبو العتاهية:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

ويقول شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ويقول الفيلسوف «ثورو»: إذا كنت قد شيدت بأمانيك قصورًا في الهواء فلا تظن أن جهدك ضاع فإن القصور لا تقوم إلا في الهواء، ولكن عليك أن تبني لها أساسًا ثابتًا في الأرض.

والملاحظ هنا أن العمل لابد أن يكون بينه وبين الأمل والثواب تناسب، فالأمل الكبير يقتضي عملًا كبيرًا، وإذا كان العمل كبيرًا كان الأجر عليه كبيرًا، والكبر جهد مع نية، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وربيعة بن كعب الأسلمي خادم رسول اللَّه ﷺ لما سأله أن يكون رفيقه في الجنة قال له: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»[١].

ويقول الشاعر الحكيم:

بصرت بالراحة العليا فلم أرها ... تنال إلا على جسر من التعب

---

(١) رواه مسلم.

ويقول المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

ويقول أيضًا:

وإذا كانت النفوس كبارًا   تعبت في مرادها الأجسام

ويقول أبو فراس الحمداني:

تهون علينا في المعالي نفوسنا   ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر

ويقول الإمام الشافعي:

أأبيت سهران الدجى وتبيته   نوما وتبغي بعد ذاك لحاقي

إن قانون العدل الإلهي يقضي بأن يكون الجزاء على قدر العمل، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩] وقال: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ﴾ [هود: ٢].

ومع مراعاة العدل في الجزاء ففضل اللّه كبير في الثواب، قد يبارك في العمل القليل ويعين صاحبه على الوصول إلى الهدف، كما حدث في إمداد الرسل ومن معهم بجند من عنده، وقد يعطي الثواب الجزيل على العمل القليل الذي فيه إخلاص أو له نتائج كبيرة، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: ٢٦]

وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وإذا كان الأمل من طبيعة الإنسان، والدين يقره ويرشد إلى حسن استخدامه موضوعًا ووسيلة، فلا معنى لليأس والقنوط أبدًا.

ومهما استحكمت الحلقات، وكثرت العقبات، فلا ينبغي أن يؤدي ذلك إلى الاستسلام المطلق، ما دام هناك إمكان لتحقيق الأمل ولو بأضعف نسبة، والنصوص في ذلك كثيرة، يكفي منها قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

والرسول ﷺ بدد اليأس الذي كان يخيم على نفوس الضعفاء الذين أسلموا بمكة، وأحاط الاضطهاد بهم من كل جانب، حين شكا إليه خباب بن الأرت ما بلغ بهم من الأذى، وتعجل نصر الله

بدعاء الرسول لهم، فقال، بعد أن ضرب لهم المثل بتحمل من سبقوهم: «**والله ليتمَّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[1]. وكان ﷺ يستعيذ بالله من العجز والكسل.

لابد أن يعيش الأمل في نفوسنا دائمًا، حتى لا تقف حركة الحياة.

يقول عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي:

صبر النفس عند كل ملم — إن في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن بالأمور فقد — تكشف غماؤها بدون احتيال
ربما تجزع النفوس من الأمر — له فرجة كحل العقال

ويقول الشاعر المعاصر أبو القاسم الشابي:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة — «فنأمل» أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي — ولابد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة — تبخر في جوها واندثر
وقالت لي الأرض لما تساءلت — يا أم هل تكرهين البشر؟
أبارك في الناس أهل الطموح — ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لم يماش الزمان — ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون حي يحب الحياة — ويحتقر الميت المندثر

---

(١) رواه البخاري.

فلا الأفق يحضن ميت الطيور ... ولا النحل يلثم ميت الزهر
ولولا أمومة قلبي الرءوم ... لفرت عن الميت تلك الحفر
فويل لمن لم تشقه الحياة ... من لعنة العدم المنتصر

أريد بهذا وأمثاله أن أحطم المقولة التي جرت على ألسنة الكثيرين، ممن لاحقتهم الأزمات، واشتدت عليهم الضغوط، من الأفراد والجماعات وبعض الدول، وهي «مفيش فايدة» وعززوها بمثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨] .

لا، لاينبغي أن نيأس وفينا عرق ينبض، فلا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس كما ذكر في النصوص السابقة.

وقد تنفرج الأزمة إن صدق العزم، في استفراغ كل الجهود في حلها، مع الثقة برحمة اللّه الواسعة، ليكون طعم النصر لذيذًا، يمحو مرارة المعاناة.

فكم للّه من لطف خفي ... يدق خفاه عن فهم الذكي
وكم يسر أتى من بعد عسر ... وفرج لوعة القلب الشجي
وكم هم تساء به صباحًا ... فتعقبه المسرة في العشي
إذا ضاقت بك الأحوال يومًا ... فثق بالواحد الأحد العلي

* * *

الوضع الحالي

بعد هذه المقدمة أقول:

إن أحدًا من العقلاء لا يرضى أبدًا عن الواقع الذي تعيش فيه الأمة الإسلامية في هذه الأيام، لا من الناحية السياسية، ولا من الناحية الاقتصادية، بل ولا من الناحية الدينية عقيدة وسلوكًا، مما جعل الدول القوية تصنفها فتضع أكثر دولها في قائمة الدول النامية أو العالم المتخلف.

ومن المعلوم، أن الأمة هي مجموعة الأفراد الذين يجمعهم شعور مشترك، أو رابطة نفسية نتيجة عوامل ترجع إلى الدين واللغة، والجنس والتراث المشترك، في العادات والأخلاق، والذكريات والمصالح الاقتصادية المشتركة.

والإسلام هو العامل الأول في تكوين الأمة الإسلامية، التي تضم جميع المسلمين في كل أنحاء العالم، حتى من يخضعون لسلطان دولة غير إسلامية.

أما الدولة فهي الرابطة القانونية والسياسية، التي تنشئ حقوقًا وواجبات بينها وبين الأفراد، تعيش في أرض واحدة، ويحكمها دستور موحد تحت سلطان حاكم واحد.

إن التناقض بين الإسلام كدين، ومن ينتسبون إليه أفرادًا أو جماعات أو دولا، يدركه المسلمون وغير المسلمين، فالمسلمون يعانون من قسوة التجربة التي يمرون بها في هذه الأيام، وغيرهم يرون التناقض الواضح بين ادعاء المسلمين أن دينهم دين القوة والعظمة والتقدم... وبين واقعهم أنفسهم.

مما جعل كثيرًا أو أكثر الأجانب يصرحون بما تكنه صدورهم، من عدم الاقتناع بصدق الإسلام كدين؛ لأن الدين الحق الذي هو وضع اللّٰه لا يمكن أن ينتج الضعف والتخلف، فاللّٰه صادق فيما يقول، حق فيما يعمل، ورسالاته رسالات إصلاح وخير وسعادة، وهذه دعاية سيئة ضد الإسلام، جنى عليه واقع المنتسبين إليه.

وإن كان المنصفون من الأجانب عنه يعتقدون صدقه، بدليل تجربته الرائعة في عصوره الزاهية.

وقد ألف بعضهم في ذلك كتبًا أقروا فيها بفضله على الحضارات التي قبست منه، ولكنهم مع ذلك يخشون عودته من جديد، حتى لا يزاحمهم في تنافسهم الدنيوي المسعور.

وعدم اقتناع المسلمين بواقعهم، قدر مشترك، يحس به الركنان الأساسيان لكل دولة، وهما: الشعب والحكومة،

فالشعوب تقاسي وتعاني، والحكومات تكد وتتعب لرفع المعاناة، إما قيامًا بواجبها كسلطة قلدها الشعب زمامه، وإما حفاظًا على مركزها كقوة حاكمة، وإما لأمر آخر.

والطرفان يتبادلان الاتهام، كل يحاول إلقاء التبعة كلها على الآخر، وقد تتطور الاتهامات، فتتخذ أساليب عنيفة من كل منهما، لا تجني منها البلاد إلا مزيدًا من الضعف والتخلف، بتبديد القوى وتوجيهها إلى الهدم بدل توجيهها إلى البناء.

إن هذا الواقع المرير للمسلمين، يتنافى تمامًا مع القرار الإلهي الحكيم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ذلك القرار الذي تأكد صدقه فترة من الزمان، حين طبق المسلمون بحق كل المرشحات التي أدت إلى صدوره: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: تضعون قواعد الإصلاح وتقضون على عوامل الفساد باسم اللَّه الذي آمنتم به.

والمؤمن بحكم إيمانه باللَّه وتصديقه بكلامه المنزل من عنده، لا يمكنه أن يكذب قول اللَّه الذي أصدر قرار الخيرية للأمة الإسلامية، فذلك كفر يخرج عن الإيمان، فهو سبحانه كما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ

مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وفي الوقت نفسه لا يمكنه أن يكذب الواقع الذي يضغط على كل أحاسيسه، ويشير إليه بأصابع الاتهام، فهو يعيش أيامه هذه ممزقًا، وفي صراع مرير، يشده قرار اللّه مرة، ويشده الواقع مرة أو مرات أخرى.

* * *

التفكير في الحل

ومن هنا ملأ الأمل نفوس بعض الغيورين على الدين، وقويت فيهم إرادة التغيير للملاءمة بين القرار والواقع، عسى أن يعود إلى الأمة الإسلامية مجدها الأول، أو يقارب على الأقل، ليخرجوا من دائرة الدول النامية أو المتخلفة، ويمحوا هذه الوصمة التي يحاول الأعداء أن تظل باقية رمزا للإهانة، أو دعوة إلى الحاجة إليهم والدوران في أفلاكهم.

وبدافع من هذا الأمل فكر العقلاء في البحث عن سر هذا التناقض بين القرار والواقع، فنادوا في المسلمين واستنفروهم للجهاد بكل وسيلة ممكنة ضد هذا التخلف؛ لأن الرضا به أو السكوت عليه قضاء على المجتمع الإسلامي بالموت البطيء أو السريع، ومع الاتفاق على النفر العام لتحقيق الهدف، اقترحت عدة وسائل للوصول إليه على ما هو موضح في الجزء الأول من كتاب: «بيان للناس من الأزهر الشريف» وكانوا في ذلك فريقين:

الفريق الأول: فتن بالغرب وحضارته رغبًا أو رهبًا؛ لأنه قوى متحضر، لا يستغني عنه الضعفاء المتخلفون، أو لأنه مستعمر له يعيش في حماه، أو كان يعيش وما زال متأثرًا بما تشرَّبه من

مبادئه، فرأى هذا الفريق أن الأخذ بحضارة الغرب هو المخرج من تخلف المسلمين، ومن هذا المنطلق دعا إلى عقد ندوات ومؤتمرات لمناقشة عوامل التخلف، واقتراح الحلول المناسبة، وكان المدعوون لهذه اللقاءات من كبار المثقفين والمصلحين الذين تجمعوا من أطراف العالم الإسلامي، وانتهوا إلى قرارات أو اقتراحات وتوصيات لوحظ عليها أمران:

أولهما: أنها لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ على الرغم من تكرر هذه اللقاءات ومرور السنين الطوال على هذا المنوال، وذلك إما لعدم وجود الإمكانات المساعدة، وإما لعقبات وضغوط حالت دون التنفيذ، سواء أكانت من الداخل، أم من الخارج، وإما لأسباب أخرى كرغبة بعض الانتهازيين في بقاء الوضع على ما هو عليه للاصطياد في الماء العكر، وتحقيق المصالح الشخصية، لجماعة معينة أو دولة خاصة، ولهذا ضاعت الجهود سدى مع ما أنفق عليها من أموال، كان حسب المتحملين لها الإعلان بأنهم أسهموا في حل المشكلات، وهو شعار يتغنى به بعض من يريدون لفت الأنظار إليهم وكفى.

والأمر الثاني: أن هذه القرارات، أو الاقتراحات والتوصيات، عندما أعلنت، شغل الناس بها نقدًا وتعليقًا،

وبخاصة ممن لم يدعوا إلى هذه اللقاءات، ويحسون بأنهم ليسوا أقل كفاءة من المدعوين، أو ممن دعوا وكانوا قلة معارضة، لكن رأي الأغلبية طغى عليها، كما هو الشأن في أمثال هذه الاجتماعات، وهذا النقد عامل يضاف إلى العوامل الأخرى، التي تضعف من قوة النتائج، التي انتهت إليها هذه اللقاءات، وتقلل من شأنها، وبقيت حبرًا على ورق، لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ، وكلما مر الزمن جدت عوامل وأفكار وتيارات، تضع بصمتها حتمًا على أي نقاش يدور في لقاءات أخرى، تنتهي إلى ما انتهت إليه اللقاءات الأولى، وتعيش الأمة حياتها على هذا المنوال المليء بالوعود والشعارات والإعلانات وتغيير السلطات، دون نتيجة عملية تأخذ بيد الشعوب المطحونة، التي استولت عليها الوساوس والشكوك، وكثرت فيها الأمراض النفسية والعصبية، التي أسلمتهم إلى اتخاذ وسائل غير مشروعة، عسى أن تخفف عنهم ما يعانون.

ومن الملاحظ على كثير من هذه اللقاءات، أن غالبية المشاركين فيها هم من الذين تثقفوا ثقافة أجنبية بخصائصها المميزة لها، وتحمسوا لها، لدرجة التقديس الذي لا ينبغي - في نظرهم - أن تمس بسوء، في الوقت الذي ضعفت فيه

ثقافتهم الدينية الأصيلة، زهدًا فيها وعدم إيمان بفائدتها، حيث لم يروا أثرها في المجتمع الإسلامي، مع تأثرهم بما يروجه الأعداء عنها، ومن هنا كانت المناقشات مع ما أسفرت عنه، بعيدة عن الجو الإسلامي النظيف.

ورجال العلم الديني المهتمون بالإصلاح، لم يدعوا إلى هذه اللقاءات، أو كان المدعوون إليها من القلة بحيث تغلب عليهم أصوات الكثرة، ولا يوجد أثر لاقتراحاتهم، وربما كان مجرد دعوتهم دفعًا لما عساه يوجه إلى الداعين من نقد عن إهمالهم، ولئن كان العمل جاريًا على الأخذ برأي الأغلبية، فالمفروض أن يكون هناك تكافؤ بين الباحثين في فهم ما يبحثونه، وفي حسن القصد، وبدون ذلك لن يكون هناك التقاء على المصلحة العامة ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]. وبهذه الصورة ظل الحال على ما هو عليه، بل ازداد تخلف الدول الإسلامية في مجموعها - لا في جميعها - وكأن على عيون القائمين عليها أو المنتمين إليها، حجبًا كثيفة تحول دون رؤية الحقيقة المرة، التي يغص بتجرعها المسلمون.

والفريق الثاني من الباحثين في الوضع الحاضر للأمة، رأى أن الإصلاح لا يكون إلا عن طريق العودة مرة أخرى، عودة

كاملة إلى الدين، وتقوية الصلة به علمًا وعملًا، وأطلق على ذلك اسم التيار الديني أو الصحوة الدينية.

وهذا كلام حق لا مرية فيه، يجب أن يؤمن به ويصدقه ويدعو إليه جميع المسلمين.

ذلك لأن الدين هو المنفذ الوحيد للخروج من الظلمات إلى النور، والعبور من الضلال إلى الهدى، وهذه الحقيقة قالها كثيرون على مدى التاريخ قديمه وحديثه، حتى من قبل ظهور الإسلام كدين ختمت به الأديان، وتكفي في ذلك الإشارة إلى مقولة الإمام مالك المتوفى سنة (١٧٩هـ) وهي: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» ومن قبله قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁: «كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا به أذلنا»[١] ومن قبلهما قال ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنتي**»[٢]، وكل ذلك من وحي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

(١) رواه الحاكم وصححه.
(٢) رواه الحاكم وصححه.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

والقرآن نفسه حلقة في سلسلة الكتب السماوية، ورسالة الإسلام امتداد للرسالات الإلهية، التي جاءت تنبه البشر إلى الأخطاء التي تنكبوا بها الطريق، الذي رسمه الله تعالى لأبيهم آدم حين هبط من الجنة إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ (١٢٧)﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧].

* * *

صيحات الإصلاح

وعلى مدى التاريخ الإسلامي، قامت صيحات تنادي بالعودة إلى الدين، علاجًا لتخلف المسلمين، وبرز فيها أعلام جاهدوا في سبيلها على مستوى العالم الإسلامي كله، أو على مستوى البلد الذي يعيش فيه أي علم منهم، وألفت جمعيات تحمل شعار العودة إلى الدين بعناوين مختلفة، واهتمامات معينة، بأساليب متنوعة، وما تزال هذه الأصوات تجلجل في الآذان، ويتردد صداها في الآفاق، وبخاصة عندما تجد ظروف ومشكلات يستعصي حلها ومواجهتها بالطرق العادية، التي لا يمكن أبدًا أن ترقى إلى مستوى الحلول التي وضعها الدين، وهذه - بالتعبير الجاري - ظاهرة صحية أن يطلب المسلمون علاج مشكلاتهم على هدى من الدين، وبصرف النظر عن استخدام الشعارات الدينية في ظروف معينة يعلم اللَّه ما يقصد منها - فإن الذي ألجأهم إلى ذلك هو ما شهدوه من إفلاس النظم الأجنبية في رفع مستواهم وتحقيق شخصيتهم الإسلامية الكريمة.

إن هذه النداءات تصحيح للمسيرة الإسلامية التي انحرفت عن القصد، وهي بمثابة التوبة والرجوع إلى اللَّه، ومن كرم اللَّه

سبحانه أن يقبل التائبين إليه بصدق، كما قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] وكما جاء في الحديث: «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[١].

* * *

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه.

نقد عام

وإذا كنا نحيي هذا الاتجاه لحل مشكلاتنا، فإن الملاحظ أن النداءات والشعارات تغلب عليها العاطفة الجياشة، أكثر مما يسيطر عليها العقل المتأنّي المتزن.

وهؤلاء العاطفيون لهم اتجاهان في الإصلاح، اتجاه يرى أن العودة إلى الدين لا تكون إلا بالقضاء على كل العناصر الفاسدة - في رأيهم - فهي التي تقود الأمة في الوقت الحاضر، وباستعمال كل الأساليب العنيفة، التي تطهر المجتمع منهم، وممن يتعاون معهم. واتجاه آخر اكتفى بترديد الشعارات، والبكاء على الماضي، والتغني بالأمجاد الأولى، واستثارة العناصر المضغوط عليها بضواغط شديدة، لتنفس عن نفسها بالمناداة بالتغيير على أساس الدين، حتى لا تتهم - إن نادت بشعار آخر - أنها تريد قلب نظام الحكم، فتطبق عليها القوانين التي تذوق منها الأمرَّين.

ولم يتقدم أصحاب هذا الاتجاه بمنهج مدروس، يعرف به الطريق السليم للعودة إلى الدين، وتحكيمه في المجتمع، ذلك الطريق الذي لابد أن تراعى فيه بدقة وحذر الأشواك الموضوعة

فيه، والعقبات التي تعوق المسيرة، ولذلك مارسوا - بسبب عدم هذه المراعاة - أعمالًا لا تمت في الحقيقة إلى القضية بصلة.

وكلما نابتهم نائبة استدروا العطف من المطحونين، أو من الشامتين المتربصين، وزاد تمسكهم بالممارسة التي اختاروها للوصول إلى غرضهم.

يجب أن نعلم أن الموقف السلبي بجوار المريض القائم على الاكتفاء بدموع تذرف عليه، وأنات ترن في أذنيه، ودعوات تردد من حواليه، اعتقادًا أنها هي التي تشفي علته، وتستنزل الدواء من السماء، كمائدة الحواريين، أصحاب عيسى عليه السلام، هذا الموقف موقف غير سليم، فبدون البحث عن الطبيب المعالج، وإحضار الدواء المناسب، وتناوله على الوجه الصحيح، سيظل المريض يئن ويشكو، بل قد يعجل بالقضاء عليه - إن لم يكن عون من اللّٰه - وذلك نتيجة إهمال الجهلاء الواهمين.

ومثل ذلك الوقوف عند حد التغني بأمجاد الماضي، والأسف على العهود الغابرة، التي ولت ولم ينعم الحاضر بها، وأذكّر هؤلاء بقول الشاعر:

لسنا وإن أحسابنا كرمت　　يومًا على الآباء نتكل

نبني كما كانت أوائلنا   تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وقول الآخر:

لئن فخرت بآباء ذوي حسب   لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

إن كلا الاتجاهين، العنف والتراخي، بعيد عن الطريق الصحيح، في الوقت الذي خلق جوّا من العداء، أو عدم التعاطف بين فريق المتجهين للحل الديني، وفريق المعجبين بالغرب والثقافة العصرية، وهؤلاء مع القائمين بالأمر يشكلون جبهة معارضة قوية في عددها وعدتها، يقف الطرف الآخر منها حائرًا، لا يتقدم خطوة لها قيمتها على طريق الإصلاح، ولا يسلم من المنغصات بأي لون من ألوانها وما أكثرها . . . وينضم إلى هؤلاء المعارضين جبروت الاستعمار، الذي لا يرضى أبدًا أن تقوم صحوة دينية في البلاد الإسلامية، التي له سلطان عليها بأية صورة من الصور؛ لأنها تقف حجر عثرة في طريق تحقيق المآرب، التي يخطط لها من زمن بعيد، للثأر من القوة الإسلامية، أو من الدين بوجه عام، من أجل التمكين للعلمانية والمادية الملحدة.

الذين ينادون بالعودة إلى الدين عن طريق العنف، أو الاكتفاء بترديد الشعارات، مخطئون في هذه الوسيلة، ولن يصلوا أبدًا إلى ما يريدون. فكل حركة إصلاحية - أيًا كانت - لابد لها من

قيادة رشيدة حكيمة ومن تخطيط دقيق يضعه فاهمون مجربون، ولا تترك للعواطف وحدها، ولا لمن تقل معرفتهم بالدين الذي يدعون إليه، والأسلوب الصحيح لهذه الدعوة، كما يقول القائل:

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الشفاء وما إليه وصول
كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

عندما أرسل الله الرسل لهداية البشرية لم يتركهم وحدهم يتصرفون باجتهادهم فقط، بل أمدهم بالإرشاد إلى الطريق الصحيح الذي تنجح به دعوتهم، وكم من الآيات في القرآن الكريم تحث الرسول ﷺ وصحبه على الصبر والتحمل، وهو يدعو في مكة، وأوائل عهده بالمدينة؛ لأن أسلوب الانتصاف من الظالمين لم تتهيأ ظروفه بعد، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وفي بيان منهج الإصلاح في دعوة النبي ﷺ وضعت رسالة

طبعت منذ عدة سنوات بمعرفة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بوزارة الأوقاف المصرية، دارت حول شرح الآية الثانية من سورة الجمعة، والآية رقم ١٦٤ من سورة آل عمران وقد مر ذكرهما.

وقد وجه القرآن الكريم رسول الله ﷺ وصحبه إلى الاهتمام بالأساس الأول للنهضة، وهو العقيدة والقيم «الإيديولوجيات» التي تدفع إلى العمل، للوصول إلى الهدف المنشود. . . ولذلك ظل الرسول الكريم يدعو في مكة ثلاثة عشر عامًا، إلى توحيد اللّه والإيمان بالحياة الآخرة، أي إلى الانطلاق من منطلق واحد، والعمل لهدف واحد، مع الإحساس بالمسئولية، ومتابعة النشاط لتقويم الحصيلة، ومقابلتها بما تستحقه، وذلك في يوم العدل والإنصاف، يوم يقوم الناس لرب العالمين، المنطلق واحد، والهدف واحد، والرقابة محكمة، والمسئولية مقررة، والجزاء لا محالة منه.

* * *

التغيير بالقوة

إن التغيير بالقوة والعنف دون تخطيط سليم، هو طابع الثورات، وسمة الانقلابات، وإلى جانب ما قد يراق فيه من دماء، وما يؤدي إليه من تعطيل الإنتاج، وتوقف عجلة المسيرة - عمره قصير، كالنار تشتعل في الهشيم، فتكبر وتعظم، وتلفت الأنظار إليها ساعة أو أكثر، ثم لا تلبث أن تخمد ولا تخلف وراءها إلا الرماد والدمار.

والانقلاب الثوري لا يقوم به أفراد أو جماعات، لا تملك العدة اللازمة لمعركة هي معركة المصير، كما يطلق عليها حديثًا، فإما أن نكون أو لا نكون، بل لابد لنجاحها، من قوة على أتم الاستعداد لمواجهة كل الاحتمالات، كالجيش في البلاد المنظمة، أو النقابات الكبرى الموحدة، أو ما يطلق عليه اسم «الميليشيا المسلحة» وكالعصبية القبلية، التي تدين بالولاء التام لشيخ القبيلة ورئيسها، بحيث يكون القائمون بها على قلب رجل واحد، يصمدون حتى النهاية، فإن لم يكن الانقلاب الثوري بهذا الشكل كان كالحرب الأهلية - إن لم يكن إياها - وكانت فتنة تراق فيها دماء بريئة، وكانت الفرصة سانحة لتدخل الأيدي الغريبة، وإمداد

هذه الفتنة بما يطيل أمد اشتعال نارها، لتسفر عن ضعف ينهك قوى الثائرين، وذلك ما يبغيه المتربصون.

وبمناسبة العزم المصمم على التغيير والصمود في المعركة إلى النهاية، أذكر مثلًا - حقيقيًا كان أو خياليًا - وهو أن بعض المناطق في دولة من الدول تذمرت من وجود ناقة يملكها الحاكم العام؛ لأنها تتلف الزرع الذي تقوم عليه حياتهم، وهم لا يستطيعون مسها بسوء خوفًا من بطش الحاكم فصمموا على إرسال وفد منهم لمقابلته في مقره، الذي يبعد كثيرًا عن هذه المنطقة، ليرفعوا إليه شكواهم، فاختاروا مائة منهم يتحركون في الصباح الباكر، فلم يجتمع منهم لبدء المسيرة إلا نصف هذا العدد، وفي أثناء الطريق تسلل البعض وانتهى العدد إلى عشرة وهم على باب القصر الأميري، ولما أذن لهم بالدخول وقفوا صفًا واحدًا أمام الحاكم، فطلب أن يتقدم منهم واحد يتكلم بالنيابة عنهم، فجبنوا جميعًا ولم يتقدم أحد، ولما أحس كبيرهم أن نتيجة الجبن قد تكون القتل أو التنكيل بالجميع، تقدم هو خطوة ثم قال: جئنا لنشكر عظمتكم من كل قلوبنا، على تشريف منطقتنا، باختيارها لترعى فيها ناقتكم، ولما كنا نخشى - بعد عمر طويل - أن يصيبها سوء أحببنا أن يدوم لنا هذا

الشرف، فنلتمس من كرمكم العظيم، وحبكم للرعية، أن ترسلوا لنا جملًا يعيش مع الناقة، لعلها ترزق ببعير نسعد به كما سعدنا بأمه، فما كان من الحاكم إلا أن شكرهم، ولبى رغبتهم، وأمر بإرسال جمل يعيش مع الناقة، ولما انصرفوا دهش الوفد من رئيسهم كيف يتصرف هذا التصرف، فقال لهم: اتفقنا على أن يكون الوفد مائة فانتهى إلى عشرة، فعقابًا لكم على جبنكم جئتكم بجمل آخر مع الناقة. وهكذا يكون الجبن والنفاق وعدم الإخلاص في التغيير مضاعفًا للمصيبة، بدل أن يزيلها أو يخفف منها.

إن الفلول المتحمسة للتغيير الثوري، اعتمادًا على العاطفة فقط، وإطلاق الشعار لا غير، قلما تكون مستعدة للتضحية، فكثير منهم لم ينضج عقله بمقدار ما نضجت عاطفته، التي تثيرها أماني عذاب وآمال براقة، يخدع بها الشباب.

وقد يكون الحرص على المصلحة الخاصة من وراء هذه الثورة أكبر من الحرص على المصلحة العامة، وبسبب هذا الشعور المتحمس كثيرًا ما يدب الخلاف بينهم أثناء المعركة، ويتنازعون على اقتسام الغنائم المادية أو الأدبية المنتظرة، فيفتر الحماس وتهدأ العاصفة، أو تنشق جماعة تتخذ أسلوبًا آخر،

فتتوزع الجهود وتبعد الغاية، وتكثر الضحايا.

إن بعض العاطفيين يود لو يقوم بالتضحية جماعة بدلهم، ويقتصر دورهم هم على إثارة الحماس وإلهاب المشاعر، بل يركزون على فئة من الناس تتقدم الصفوف وتقود المعركة الفعلية، ولا يهمهم أن تراق دماؤها، في الوقت الذي يتوارون فيه عند اللزوم - وباستطلاع خبيئة بعضهم، اتضح أن خطتهم تستهدف القضاء على بعض الجماعات كجزء من الإطاحة بالرءوس الحاكمة، وكثير من أصحاب هذه الفكرة العنيفة منبثون في بلاد إسلامية متبنين الدعوة إليها، كمتنفس للوضع القاسي الذي ألجئوا إليه في السنوات الأخيرة، وشعارهم فيها «عليَّ وعلى أعدائي».

* * *

التغيير السلمي

تغيير الوضع الحاضر للمسلمين بطريق سلمى لم يتفق القائلون به على منهج واحد - إن كانوا قد وضعوا مناهج - وهم في جملتهم نوعيتان رئيسيتان:

الأولى:

نوعية تتجة اتجاهًا سياسيًا، أو بمعنى آخر «تسييس الحكم» وأقصد به أنها تريد إصلاح المجتمع عن طريق إصلاح القمة والإدارة ونظام الحكم، وذلك عن طريق تحكيم الدستور الإسلامي وما يلزمه من مناصب يرون - أو يرى الكثير منهم - أنهم هم الجديرون بها؛ لأن الفساد في رأيهم أساسه الحكام، والدستور الوضعي الذي يحكمون به، وهؤلاء منقسمون على أنفسهم في التشريع المأخوذ من القرآن والسنة واجتهادات الأولين.

فبعضهم يميل إلى ما يسمى بالأصالة، أي الأخذ بالمنهج القديم في التشريع، لأنه الأصل الذي بنيت على أساسه الدولة الإسلامية الأولى، بحضارتها وعظمتها المثالية، التي يتمنون استعادة أمجادها، وسار السلف على هذا المنهج في اجتهاداتهم الفقهية، والتمسك بالنص والصور التطبيقية الأولى، وبعضهم

يميل إلى ما يسمى بالمعاصرة في التشريع، ويحاول التوفيق بين النصوص ومتغيرات العصر، بحكم أن الدين صالح للتطبيق في كل زمان ومكان، ولابد أن يكون فيه حكم لكل حادثة يتنفس عنها التطور، وما أكثر ما يجد من الحوادث التي لم تكن في العصور السابقة، وهم يميلون إلى تطويع النص والتأثر بمذهب المعتزلة والعقليين، الذين قد يفرطون فيقدمون حكم العقل على النص، أو محاولة التلاؤم بينهما ولو مع التعسف والتكلف، متأثرين في ذلك بمظاهر المدنية الحديثة، مهتمين بالاقتباس منها أو الحياد معها على الأقل، نظرًا للتشابك الشديد بين النظم وسرعة تلاقح الأفكار، بعد سهولة الاتصال بوسائله المختلفة.

الثانية:

نوعية لا تهتم بالجانب السياسي، بل تريد الإصلاح عن طريق القاعدة، وتركز في الدعوة على بعض المسائل، لإصلاح العقائد وتصحيح العبادة وتقويم السلوك، ويشتد نشاطها بين أفراد الشعب، دون اهتمام كبير بالسلطات الحاكمة كالنوعية الأولى، وإن كان الجميع في نظرها سواء، فكل مسلم - أيًا كان مركزه في المجتمع - مطالب بصحة العقيدة والعبادة والسلوك.

ومن أجل هذا تكونت جمعيات، لكل منها اهتمام خاص بناحية

من نواحي الإصلاح في هذا الإطار، فمنها ما يهتم بتجريد التوحيد لله ونفي مظاهر الشرك، كالحلف بغير الله والتوسل بالأولياء والتبرك بالأضرحة، وعدم وصف أحد بالسيادة حتى لو كان الرسول ﷺ، فالله هو السيد وحده... ومنها ما يهتم بفروع الشريعة، وبخاصة السنن والمندوبات، خشية اندثارها أو التهاون فيها، كإعفاء اللحية وإرخاء العذبة، وإحفاء الشارب، وتقصير الملابس واختيار اللون الأبيض.

ومن هؤلاء من كون جمعية أو تشكيلًا أيًا كان اسمه - من أجل الدعوة إلى استعمال الخشبتين «السواك والخلال» من أجل نظافة الأسنان، ففيهما الغناء عن الأدوات والمستحضرات الحديثة.

وقد يتنفس اتجاه هذه النوعية - على اختلاف مجالات نشاطها - عن تشكيلات بأسماء واهتمامات أخرى، يرون فيها امتصاصًا للنقمة على الوضع المتردي للأمة الإسلامية، بالقدر الذي يستطيعون به التنفيس عن سخطهم على انحراف المجتمع عن القصد.

ونحن لا نعارض هؤلاء ولا هؤلاء، ونؤكد وجوب تصحيح العقيدة والحفاظ على سنة رسول الله ﷺ، لكن لا نوافق على وقوفهم عند هذا الحد من الاهتمام بالدين، فهناك مسائل أخرى تستدعي الاهتمام الكبير في الوقت الحاضر، كما لا نوافق على

التعصب المفرط الذي قد يتطور إلى فوران ينتج آثارًا ضارة، وإلى فرض هذا السلوك بوسيلة أو بأخرى على الغير، والحكم على المخالف بالفسق أو الكفر، الأمر الذي يؤدي إلى بعثرة الجهود، وضياع الأموال، وتفريق الصفوف، والانشغال عن القضايا الضاغطة، وبخاصة إذا كانت هناك أيد خفية تحرك وتمول، سواء من الأعداء، أو من المسلمين أنفسهم، لأسباب لا داعي لإثارتها، وقد يعرفها كثير من أولي الألباب.

وبهذه المناسبة أقول: إن بعض الذين ينادون بالاهتمام بالقضايا المعاصرة، يشتطون في هذا الاتجاه، بما يقرب من قطع العلاقة بالماضي، وعدم الاهتمام بالقضايا التاريخية الأولى، التي خلقتها الظروف، وألفت فيها كتب تدرس باهتمام في الأوساط العلمية.

وليكن معلومًا أن أكثر المشكلات المعاصرة لها جذور تاريخية، وهي انبعاث جديد لقضايا العصور السابقة، ومن أجل التمكن من معالجة الحديث ينبغي الاطلاع على علاج القديم للإفادة منه، لا لمجرد الترف الذهني، فالوقت في ظروفنا الحاضرة لا يتسع لذلك.

والمقصود من الدراسة القديمة هو العبرة، وسهولة العثور

على أسباب المشكلات الحديثة، وطرق علاجها، ومن أجل هذا كان قصص القرآن لأحوال السابقين، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

إن التغيير السلمي يحتاج إلى إعداد طويل، وإذا نجح بقي أثره مدة طويلة، على عكس التغيير الثوري المتعجل، الذي لا دوام له ولا استقرار في غالب الأحيان، وذلك إلى جانب أن التغيير المتعجل في ظل الأوضاع الحاضرة - ولابد من التركيز على الأوضاع الحاضرة - يكون عملًا غير دستوري؛ لأن أكثر الدول الإسلامية تحكم الآن بدساتير وقوانين منقولة عمن يختلفون عنا، عقيدة وسلوكًا وهدفًا وظروفًا، وليست كلها متفقة مع الدين، حيث يلاحظ أنها مهتمة بالحفاظ على النظام القائم على علاته.

وكل تغيير غير دستوري سيلاقي مقاومة عنيفة، وإذا فشل كانت خسارته فادحة، فلابد من التصرف الحكيم في حدود هذه الدساتير حتى تغير أصلًا ، وذلك يحتاج إلى حكمة كبيرة في الدعوة، أما التغيير السلمي فيمكن أن يكون عند الفهم الدقيق، تغييرًا دستوريًا نابعًا من إرادة الأمة بعد الإعداد السليم، الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

* * *

الأسوة الحسنة

لقد عاش النبي ﷺ حياته قبل الرسالة مواطنًا عاديًا، ليس له سلطان، حائرًا يفكر في الطريق الذي يسلكه ليهدي قومه، ويخرجهم من ظلمات الشرك وعادات الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] على بعض الأقوال في تفسير الضلالة بالحيرة وعدم الاهتداء إلى طريق الإصلاح.

ولو نادى بالإصلاح كفرد عادي لرفض، وذلك لعدم وجود المقومات اللازمة لهذه الحركة عنده، فهو على الأقل فقير في المال، وليس له سلطان يمكنه من القيام بالإصلاح، فهداه الله وأيده بالوحي والرسالة، ومهد لقبول دعوته بسلوكه الرشيد الذي شهدوا له فيه بالصدق والأمانة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] وذلك عندما طلب أهل مكة منه أن يغير بعض آيات القرآن، كما مهد لقبول دعوته بانتزاع الشهادة منهم أنه مخلص وحريص على مصلحة قومه، حيث ناداهم بقوله: «**أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبًا، قال: «**فإني رسول الله إليكم خاصة وإلى**

الناس كافة» وفي رواية: **«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**[1].

وقد أعطاه اللَّه معجزة كانت سلاحه القوي في التحدي، يحملهم على التصديق بأنه رسول من عند اللَّه، وليس ثائرًا يبغي عرضًا من أعراض الدنيا التي جربوا إغراءه بها، فأبى كل الإباء.

ومن هنا كان صوته جديرًا بأن يسمعه ويتأثر به العقلاء المنصفون المتحررون من سلطان التقليد، وعصبية الجاه والسلطان، وفي الوقت نفسه كان اللَّه معه بالحماية عند الاقتضاء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥].

ومع كل هذه العوامل من قوة الحجة واطمئنانه لدفاع اللَّه عنه، لم يستطع أن يمس الأصنام بسوء من العمل، بل لم يسلم من أذى المشركين حين تعرض لها بمجرد القول في بيان حقيقتها، ليتنبه العابدون لها أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تغني من الحق شيئًا، فهو وحده مع القلة من

(١) رواه البخاري.

المؤمنين بمكة لا يمكنهم أن يقوموا بالتغيير الجذري الشامل لمجتمع مكة، بل نرى أن الصلاة لما فرضت بمكة كان الرسول ﷺ يؤديها عند الكعبة، والأصنام من حوله لا يستطيع أن يمد يده إليها بأذى، مكتفيًا بالإنكار باللسان الحكيم، والقلب الكبير، متوجهًا إلى اللَّه وحده بالعبادة وسط هذا الجو الكئيب.

ولما هاجر إلى المدينة وقامت الدولة الإسلامية بمقوماتها الأساسية، أرضًا وشعبًا ودستورًا وحكومة، ثم جاء مكة لأداء عمرة القضية حسب صلح الحديبية، طاف حول الكعبة والأصنام قائمة، لكن لما جاء مكة بعد ثمان سنوات من الهجرة فاتحًا منصورًا كان السلطان كله في يده، والقوة على أتم استعداد للتضحية، فهوت الأصنام منكوسة أمام قضيب في يده يصرعها بالقوة المنبعثة من الإيمان بالحق ورفع شعاره ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

إن حاملي لواء التحرير بالعنف كثير منهم لم تتضح له الصورة الصحيحة للدين، الذي يثورون من أجل التمكين له، وعدم وضوح الصورة لأي مشروع ديني أو دنيوي خطأ كبير، حيث يجب أن يعمل الحساب للظروف، وأن تقدر عواقب العنف، وتدرس في هذا المقام سيرة النبي ﷺ في الدعوة، وهو القدوة

الحسنة لنا في كل ما يهمنا.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] حيث قال له رب العزة سبحانه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وهي آية من سورة نزلت بمكة، تطبق في مجتمع يسود فيه الكفر، ويتحكم فيه الجهل، لابد لإصلاحه من استعمال الحكمة، فكيف بالمجتمع المؤمن الذي يراد إصلاح ما دخله من فساد؟ إن ذلك يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة الحسنة.

والمتشددون في حكمهم على مجتمعات المسلمين بالكفر قاموا بأساليب بعيدة عن الحكمة، التي وجه اللّه إليها من هو قدوة الجميع في معاملته مع الكفار.

إن الانطلاق في إصلاح المجتمعات الإسلامية من الجزم بكفرها لمجرد وجود بعض السلبيات التي لا يوافق عليها الدين - انطلاق خطأ؛ لأن كل مجتمع على مدى التاريخ الطويل فيه سلبيات يمكن إصلاحها بوسيلة سلمية، من أجل التقليل منها بالقدر المستطاع؛ لأن محوها بالكلية حلم لا يتحقق؛ لأنه يناقض الطبيعة البشرية التي فيها الخطأ والصواب.

وبقدر ما تقل السلبيات يكون المجتمع أقرب إلى الكمال - وممارسة العلاج بالأسلوب العنيف البعيد عن هدي الرسول ﷺ ممارسة جانبت الصواب.

وبهذه المناسبة أذكر ما رواه التاريخ من غيرة بعض المسلمين على المخالفات التي ترتكب في المجتمع، ومطالبة المسئولين بإزالتها تمامًا، ليكون المجتمع سليمًا خالصًا من كل سوء.

ذكر الطبري في تفسيره، ونقله ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] أن بعض المصريين شكوا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص - وكان عمرو واليًا على مصر - أن بعض أمور الدين لا تطبق في الشعب، وطلبوا رفع الشكوى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما ذهبوا إلى المدينة سأل عمر واحدًا منهم: هل قرأت القرآن كله؟ قال: نعم، قال: هل عملت بكل ما فيه؟ قال: لا، وكذلك قال الآخرون. فقال عمر: ثكلت عمر أمه، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات، قال تعالى - وتلا الآية السابقة - ونهرهم وأمرهم أن يكتموا ذلك الخبر، وإلا عاقبهم.

لا أطيل على قارئ هذه الرسالة بإيراد النصوص التي تتصل بالعلاقة بين الشعب والمسئولين بخصوص إصلاح الأخطاء، فهي مستوفاة في الجزء الأول من كتاب «بيان للناس من الأزهر الشريف» وحسبي أن أضع أمامه هذه النقول:

١- عن عوف بن مالك الأشجعي، أن النبي ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم** - المراد بالصلاة الدعاء - **وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**» قال: قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدًا من طاعة**»(١)، والنبذ هو الإعلان بالقتال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨].

٢- عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «**يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم منكم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس**» قال: قلت: يا رسول الله كيف أصنع إن أدركت ذلك؟ قال: «**تسمع وتطيع**

(١) رواه مسلم وأحمد.

وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع»[1]؛ ذلك لأنها ثورة مغرضة، أي: فتنة، والواجب هو عدم الدخول فيها.

٣- عن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول اللّه ﷺ على السمع والطاعــة في منشطنا ومكرهنــا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان»[2] وفي رواية «كفرًا براحًا» والكفر البراح - بضم الباء - هو الظاهر الواضح، وأصل البُراح الأرض القفر التي لا أنيس فيها ولا بناء.

وجاء في رواية الطبراني «كفرًا صراحا» بصاد مضمومة ثم راء.

يقول شراح الأحاديث: لا تجوز منابذة الأئمة بالسيف ما كانوا مقيمين للصلاة. وفي قول الرسول: «**وإن ضُرب ظهرك**» دليل على وجوب الطاعة للأمراء وإن بلغوا في العسف والجور إلى حد ضرب الرعية وأخذ أموالهم، فيكون مخصصًا لعموم قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٩٤] وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

---

(١) رواه مسلم وأحمد.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

يقول ابن حجر في «فتح الباري»: وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه، لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين الدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها اهـ.
وقوله: «لمن قدر عليها» لها وزنها عند مقاومة المنكر.

ذلك قول العلماء العمالقة منذ مئات السنين في فهم النصوص الدينية، ومن الغريب أن المتجهين إلى العنف يتعصبون لرأي بعض العلماء، الذين كانوا يعيشون في ظروف خاصة، ليست مشابهة تمامًا لظروف المسلمين الحاضرة، نادوا فيها بالعنف ضد الأعداء؛ لأن الأعداء كانوا كفرة، وإن تظاهروا بأنهم مسلمون، كوسيلة من وسائل استمالة المغلوبين لهم، وكذلك من كانوا يعاونون هؤلاء الكفرة - في الحقيقة - المتظاهرين بالإسلام.

ومع تعصبهم لرأي هؤلاء يرفضون آراء كبار العلماء، مع أن من يتعصبون لرأيهم يحترمون هذه القمم الشوامخ، حيث ارتضت الأمة الإسلامية آراءهم بما يشبه الإجماع طوال هذه القرون.

ومن الملاحظ أن كثيرًا من دعاة الإصلاح الأولين كانوا ينطلقون في دعوتهم من الواقع الذي يعيشون فيه، وقد يكونون على صواب

في ذلك، لكن الأتباع والمريدين والمعجبين الذين يعيشون في بيئة مغايرة، وفي زمن مختلف، وفي ظروف أخرى مباينة - يحرفون دعوة الزعماء كمًا وكيفًا، فيدخلون فيها ما ليس منها، أو يسلكون منهجًا غير منهجهم، مثلهم في ذلك مثل من سلكوا طريقًا في التربية الخلقية على منهج مرب كبير، بينهم وبينه مراحل في الزمن والفهم والإدراك، فشوهوا الدعوة، أو فتحوا ثغرة للطعن في الطريقة ومن أسسها، وهو البريء الذي جنى عليه أتباعه.

إن الإنكار على الولاة الطاغين لا يكون باليد في الظروف التي أشرنا إليها فالآثار وخيمة، والنصوص تمنع من ذلك، والإنكار باللسان هو الوسيلة الممكنة عند العجز عن الإنكار باليد، كما صح بذلك الحديث «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1]، وشرح هذا الحديث مبسوط في الجزء الأول من كتاب «بيان للناس» المشار إليه من قبل.

وكل إنسان له الحق في الإنكار بالوسيلة الممكنة، مع التحفظات التي قررها علماء الفقة والتفسير والحديث والدعوة، من واقع مقابلة النصوص بعضها ببعض، واستلهام روح الشريعة

---

(١) رواه مسلم.

التي جاءت للإصلاح.

وإذا كان النبي ﷺ قال: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[1]، وإذا قال أيضًا: «**إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم**»[2]. فإن ذلك يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، التي تؤمن معها الفتنة، ويظن حصول الفائدة، ولا يترتب عليه ضرر أكبر.

وللرسول ﷺ والسلف الصالح مأثورات في ذلك، يجب أن تتبع حتى لا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير، بسبب حفظ شيء وجهل أشياء أخرى.

لقد كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينكر شيئًا وقع من بعض الصحابة ويرى أن التصريح به يؤدي إلى نتيجة غير مرضية، كان يقول: «**ما بال أقوام يفعلون كذا**» دون ذكر اسم من وقعت منه المخالفة، وبخاصة إذا كان في جمع من الناس، أو كان من الذين لم يرسخ الإيمان في قلوبهم بعد، فما أيسر على مثل هذا أن يثأر لكرامته - وللناس مقاييس مختلفة فيها - ويرفض الإسلام على الأقل إن لم يكن شيء آخر يصيب به من أهانه في زعمه.

---

(١) رواه النسائي وابن ماجه بإسناد صحيح.
(٢) رواه الحاكم وصححه.

ومن هذا نعرف أن من تنكب هذا الطريق الحكيم من قلة نادرة من الدعاة الذين يحلو لهم تجريح الأشخاص - وبخاصة من لهم شأن - والتصريح بأسمائهم من فوق المنابر أمام المئات والألوف، والتحدث باهتمام عن السلبيات، وتناسي الإيجابيات، مما يدل على عدم الإنصاف، وعلى خبيئة تعقدت بها نفوسهم، فطفت على السطح بهذا الأسلوب- دعاة مخطئون - وبخاصة في الظروف الاستثنائية.

وإذا أحس بعضهم بإعجاب من يستمعون إليهم ممن لا يستطيعون التنفيس عن الكبت الذي يعانونه، بمثل ما نفس به عنهم هؤلاء - ازدادوا إعجابًا بأنفسهم، وتماديًا في سلوك هذا المنهج البعيد عن الحكمة، والذي جر بسببه نكبات على غيرهم من الدعاة - هل نسي هؤلاء قول النبي ﷺ في الشخصيات الهامة: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا في الحدود**»[1].

وصدق الله إذ يقول: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

إن الأسلوب الحكيم خير هاد في هذا السبيل، وما كان من آثار السلف من مواجهة العلماء لظلم الظالمين كانت الفتنة فيها

(١) رواه أحمد وأبو داود.

مأمونة، وذلك لتمكن الروح الدينية من نفوس المسلمين، واحترام الولاة للعلماء الذين يمثلون الشعب؛ لأنهم آباؤه الروحيون، وحراس الدستور من التحريف، ولأمل العلماء، في استجابة الولاة للنصح، ولالتزامهم الأسلوب الحكيم المناسب لكل موقف، ولكل موقف ما يناسبه، وقد وصى اللّه موسى وهارون بقوله: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

إني أؤمن بمبدأ أرجو أن أكون فيه غير مخطئ، إذا وجه الإنسان نقدًا لغيره فليقدم حسن الظن به، ولا ينس إيجابياته، فلعل له عذرًا لا يستحق معه اللوم، ولعل إيجابياته تشفع لسلبياته، فهو ليس بملك معصوم، ثم ليحاول إصلاح ما يريد إصلاحه منه بالأسلوب الحكيم، وإذا وجه الغير له نقدًا فليتهم نفسه ويظن بها السوء، وليهتم بإصلاح سلبياته مهما قل شأنها في نظره؛ لأنها كبيرة في نظر غيره، وهذا الشعور يحمل على الجد في تقويم النفس؛ لأن سلبية صغيرة ربما تطيح بكل إيجابيات الإنسان في نظر غيره، وهذا يحمل على عدم الغرور بما عنده من رصيد، في هذه الإيجابيات مهما كبر هذا الرصيد.

وإذا كان هذا - في رأيي - هو ما ينبغي لأي مؤمن عادي أن يلتزمه، فكيف بمن حمله اللّه أمانة التربية بالدعوة إلى الخير،

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن افترض فيه الناس المثالية في السلوك ليكون قدوة، حيث يعدون الصغيرة منه كبيرة، والمكروه حرامًا، والمباح أحيانًا غير لائق؟.

ذلك الافتراض الذي يرهق الداعي ليكون ملتزمًا، وإن كان الواجب عليه العمل لوجه اللّه، والإخلاص له سبحانه، بعيدًا عن انتظار المثوبة من أحد غير اللّه، وإذا كان هذا الالتزام من أجل النجاح في دعوته، تلك الدعوة التي تثمر الخير الكثير للمدعوين - فلن يحرمه اللّه ثواب من اهتدى على يديه، حيث يعطيه مثل ما يعطي من ثواب على عمل قام به المتعلم بسبب إرشاد المعلم، فالدال على الخير كفاعله، والأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، كما في الحديث الصحيح.

بعد هذا أقول: ليس كلامي في أهمية الحكمة في الدعوة تخذيلًا يضعف روح الإصلاح، ولكنه توجيه للأسلوب الصحيح، الذي يرجى منه الخير، ويوصل إلى الغاية دون أضرار، أو بأقل الأضرار، فالإسلام لا يرضى الذل والخنوع، بل يحرص على الكرامة الإنسانية، ولكن في إطار: «**لا ضرر ولا ضرار**» وباتباع الأسلوب النابع من سنن اللّه الكونية، في احترام قانون الأسباب والمسببات، لقد قال اللّه سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وهو صادق فيه؛ لأنه لا يخلف الميعاد،

ومع ذلك نبه إلى وسيلة هذا النصر بقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقد سبق ذلك كما سبقت الآية التي فيها: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] فالذين يريدون الوصول إلى الغاية بدون كفاح واهمون، والذين يكافحون على غير هدي متخبطون، لم يفهموا سنة اللّه الكونية، ولا نصوص الدين فهما صحيحًا.

نتابع الحديث مع المتحمسين للتغيير بالشعارات فحسب، أو الممارسين لبعض شعائر الدين ليستنزلوا بها نصر اللّه من السماء، معتقدين أنها من أصول التغيير الحقيقي للمجتمع، أو كاحتجاج على مسلك غيرهم ممن يرون أنهم عمد الفساد في الأرض فنقول:

تغيير المجتمع بالطريق السلمي يحتاج إلى زمن طويل، والزمن الذي طور فيه الرسول ﷺ المجتمع العربي الجاهلي إلى مجتمع مثالي هو إعجاز في تاريخ الرسالات والحركات الإصلاحية، مع ملاحظة أن دعوة الإسلام ليست للعرب وحدهم، بل هي للعالم أجمع: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقد استغرق نشر الدعوة سنين طويلة، وكفاحًا مريرًا، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

وحسب الرسول ﷺ أنه بدأ الخطوة، ثم تابع المسلمون بعده

الخطوات، فعامل الزمن لابد أن يعمل حسابه، مع الإعداد السليم في كل النواحي.

لقد كتب كثيرون في هذا المجال، وقدموا أوراق عمل للعودة إلى الدين، ولكل وجهة هو موليها في اختياره المنهج الذي تقدم به، وأعتقد أنها جميعًا يمكن بالمقارنة بينها، وتلمس المتفق عليه منها، أن يوضع منهج يرجى أن يكون هو المنهج السليم للوصول إلى الغاية المنشودة، مع التأكيد على مراعاة الظروف في كل عصر ومصر، أو في كل زمان ومكان.

وهأنذا أتقدم - من وجهة نظري وأكرر ذلك - بمنهج إن يكن فيه بعض الصواب فحسبي أنني أدليت بدلوي في الدلاء، وشاركت بهذا الجهد المتواضع، والمجال واسع، والباب مفتوح على مصراعيه، وأقرب المناهج للصدق ما كان معتمدًا على حقائق مأخوذة من النص، أو من شهادة الواقع، الذي أثبت جدارة هذا الدين بتحقيق الغرض منه، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، إذا اتبع الأسلوب الحكيم دعوة وتطبيقًا، وكان ملازمًا للإخلاص تخطيطًا وتنفيذًا.

* * *

منهج الإصلاح

يقول علماء الأخلاق والتربية من المسلمين: إن كل عمل من الأعمال لابد لإنجازه من خطوات ثلاث، كررها حجة الإسلام الإمام الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥ هـ في كتابه العظيم «إحياء علوم الدين» وهي بتعبيره: العلم والحال والإرادة، فالذي يريد أن يقيم بناء لاستغلاله لابد أن يتصور في ذهنه موقعه ومساحته وعدد طوابقه، ووحداته والمواد اللازمة لإنشائه، والأموال التي تنفق عليه، ولو بصورة إجمالية أولية، ثم بعد ذلك وبعد غيره من التصورات، يدرس الجدوى والفائدة التي تعود عليه منه، مادية كانت أو معنوية، دنيوية كانت أو أخروية، وبعد الدراسة قد يقتنع بفائدته، وقد يقتنع بعدم فائدته، فإذا اقتنع بفائدته توجهت إرادته إلى التنفيذ، أي إخراج ما في الذهن إلى حيز الوجود، أو تطبيق الفكرة وترجمتها إلى عمل، وذلك له إجراءات أخرى، فلنعط توضيحًا لهذه الخطوات فيما يلي.

أولاً: العلم

أقصد بالعلم هنا في مجال العودة إلى الدين - العلم بالدين الذي يراد تطبيقه، وهذا العلم لابد أن يكون فيه وصفان.

أولهما: الشمول والإحاطة والتمام.

ثانيهما: الصدق والصحة والدقة، أي: علم حقيقي في البعدين الأفقي والرأسي بالتعبير الحديث.

فالعلم الشامل هو العلم بما في الدين، من عقائد وعبادات، ومعاملات وأخلاق، والإحاطة بكل ما جاء به من أحكام، للمجتمع الإسلامي، والمجتمع الإنساني كله، والعلم بذلك يؤخذ من المصدر الأساسي للتشريع من قرآن وسنة، نظمه ووضحه العلماء المتخصصون والأئمة المجتهدون، في كتب لم يظفر بمثلها أو بما يقاربها أي تشريع سماوي، أو أرضي، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] [الأنبياء: ٧] إلى غير ذلك من النصوص والتوضيحات، الموجودة في الجزء الأول من كتاب: «بيان للناس» تلك النصوص التي تبين سعة الهداية وشمول المعرفة، تحقيقًا لقوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومع شمول العلم، لابد أن يكون صحيحًا ودقيقًا، لتكمل

المعرفة كما وكيفًا، مع أهمية التمييز بين الأساسي منه وغير الأساسي، لمراعاة الأولوية عند اللزوم، فالعقائد وما كان معلومًا من الدين بالضرورة هي عمد أساسية لابد منها لإقامة هيكل الدين، والفرائض والواجبات تقدم في الأهمية على المندوبات والمستحبات، والمحرمات يجب اجتنابها قبل المكروهات، أي تعطي الأولوية عند الاقتضاء، بل إن المحرمات نفسها درجات، ففيها الكبائر وفيها الصغائر، ولكل منزلته في التشريع.

إن العلم المبتور الذي يركز على البعض ويترك البعض الآخر، وادعاء أن ما علم فقط يمثل الدين كله جهل وافتراء على اللَّه، ووصم للدين بالقصور، وهو الهداية الشاملة لكل ما يحتاجه البشر عاجلًا وآجلًا، والذي يحتاجه البشر ميادينه متعددة، والإنسان كما يحتاج إلى العبادة ليقوي بها صلته باللَّه، وصلته بالمجتمع، يحتاج إلى ما يحفظ عليه حياته، ويوفر له قدرته على القيام بهذه العبادة وغيرها، وذلك بالغذاء والكساء والمسكن وما إليه، ووسائل ذلك متعددة، كما يحتاج إلى حسن استخدام النعم المتاحة له، وعلاج ما يقع من أخطاء.

والإنسان لا ينعم بكل ذلك إلا في جو آمن تحفظ فيه حقوقه لدى الآخرين الذين يعايشهم، ويلزم لذلك علم بوسائل الانتفاع،

وحسن الاستخدام، وتنظيم العلاقات والفصل في المنازعات، ورد العدوان، وحماية الأوطان وما إلى ذلك مما نراه اليوم وقبل اليوم، في الأنشطة الدنيوية المختلفة، وأخذ بعض الهداية على أنها هي وحدها الدين، عجز أكيد عن تحقيق سيادة الحكم الديني، كالسيارة التي تنقصها بعض الإطارات، أو الأدوات المحركة لها.

والعلم المشوه أو السطحي، الذي لا يميز بين الضروري وغير الضروري، يعطي فرصة للمعارضين للتيار الديني أن يقولوا: إلى أي دين يدعو هؤلاء وما هو الدين الذي يرتضونه منهجًا للحكم، أهو إسلام السلف أم إسلام الخلف؟ أهو تشريع أبي حنيفة، أم تشريع أحمد؟ أي إسلام ينادون بالعودة إليه، ليكون هو الحل الوحيد الأمثل للمشكلات، والمخرج الآمن من كل هذه المعاناة؟

إنهم مختلفون في فهم الدين، وبالتالي في ممارسته، ومن الخطأ أن تتحدث جماعة منهم عن الإسلام كله من وجهة نظرهم هم، وإنما لها أن تتحدث عن تصورها للدين، وما ركزت عليه اهتمامها منه؛ لأن الإسلام عند فهمه الصحيح، يسع كل هذه التشكيلات والجماعات، بل يسع غير المسلمين ليعيشوا في ظله آمنين.

أقول:

لابد من فهم الإسلام على أنه أصول متفق عليها، وفروع يقع

فيها الاختلاف والاختلاف الضار هو في الأصول، وأول ما أطلق اسم الابتداع والزندقة كان في الخروج على الأصول.

والاختلاف في الفروع أمر طبيعي؛ لأن الاجتهاد يتدخل فيها، ولكل مجتهد عقله ورأيه وقدرته على الاستنباط من منابع التشريع، والمنصف يرى أن هذا الاختلاف الفرعي رحمة؛ لأن فيه سعة تدل على مرونة الإسلام ويسره، وعلى صلاحيته للتطبيق في كل الظروف، والذين تفرقوا وتعادوا بسبب هذه الفروع هم على خطأ كبير.

إن الأديان بوجه عام متفقة في أصول العقائد، والقيم اللازمة لسعادة كل مجتمع، كالعدل والرحمة والتعاون، مختلفة في تشريعاتها وقوانينها، المنبثقة عن الدستور الأساسي، وذلك لتناسب العصور والمجتمعات التي نزلت فيها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ التوراة والإنجيل ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

والعلم المشوه مدرجة إلى التهاون في الأساسيات التي يقام عليها البناء، وإلى التعب في أداء ما ليس بضروري كالذي يهتم في بناء البيت بارتفاع جدرانه، ولون طلائه وتزيين شكله

وتأثيثه، باذلا في ذلك قدرًا كبيرًا من المادة والعمل، على حين أن أساس البيت غير متين، فالبيت لا يلبث أن ينهار ولو بعد حين، ثم يقف صاحبه يعض بنان الندم، ويأسف على جهله بأصول البناء، ولو أنه عهد به إلى المختصين ما كانت هذه العاقبة الوخيمة.

ثم من الذي يقوم بمهمة فهم الدين وتفهيمه للناس على أساس من الشمول والدقة؟ المفروض أن كل مسلم يجب عليه اللجوء إلى المنبع الأصلي، الذي أنزله اللَّه للهداية، وما وضحه به النبي ﷺ، وذلك ليتعلم منه، لكن ذلك إن كان مستطاعًا للبعض لظروف مساعدة، فهو ليس بمستطاع للجميع، فالصحابة والسلف الصالح كانت عندهم القدرة على استنباط الأحكام من نصوصها مع تفاوتهم فيها، ولما ضعفت وسيلة فهم القرآن وهي اللغة العربية، وضعف ما أثر عن الرسول وصحبه، قام رجال موهوبون بهذه المهمة، يملكون وسائل الفهم والاستنباط، فوجدت المدارس الكلامية والفقهية واللغوية والسلوكية، وكذلك وجدت نهضة ثقافية جبارة، وترك هؤلاء الرواد مكتبة ضخمة، فيها كل فنون المعرفة بمعناها الواسع، الذي لا يقتصر على ما يسمى في العصر الحاضر بعلوم الدين،

وأصبحت هذه الكتب مصادر الثقافة الرفيعة، وأخذ الدارسون الفاهمون لها يعلمون غيرهم ما يحتاجون.

وليكن معلومًا أن من مسائل الدين ما هو واضح لا يحتاج إلى كبير عناء في فهمه، كمعرفة وجوب الإيمان باللّه، وبالبعث بعد الموت، ومعرفة وجوب الصلاة، والزكاة والصوم والحج، ومعرفة حرمة الشرك باللّه، والقتل والسرقة، والربا والخمر وما إليها، فهي أمور استفاض العلم بها جيلا بعد جيل، وذلك في هيكلها العام دون التفاصيل الدقيقة التي تحتويها.

والأمور الأخرى - وكذلك دقائق الأساسيات وتفاصيلها - تحتاج في العلم بها إلى جهد يستعان فيه بالفاهمين بصدق ما حواه كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ وكتب أعلام الفكر الإسلامي، فأوجب الدين على كل مكلف أن يطلب العلم، وشجعه عليه بوسائل كثيرة وفي الوقت نفسه أمر العلماء بنشر العلم وعدم كتمان شيء منه عمن يحتاجون إليه، والنصوص في ذلك أشهر من أن تذكر.

والأمور الأساسية الواضحة، يمكن لأى إنسان عرفها أن يعلمها غيره، وهذا التعليم يشترك فيه كل قادر عليه، وفي مقدمتهم، الآباء والأمهات.

أما ما يحتاج إلى فهم دقيق، فتقوم به معاهد التعليم والمؤسسات الثقافية المختلفة، والعلماء الذين يقومون بهذه المهمة، وهي التعليم، كانوا طلاب علم أولا، وبعد ذلك صاروا مؤهلين لأن يعلموا غيرهم، وبحمد اللّه هم موجودون في كل بلد إسلامي، على تفاوت بينهم كما وكيفًا، وكانت هناك على مدى التاريخ مدارس تقوم بمهمتين:

الأولى: تعليم الراغبين والمحتاجين إلى العلم، كبقية المؤسسات التعليمية.

والثانية: تخريج المعلمين الذين يقومون بالتعليم في المجالات المختلفة، وعلى رأس هذه المدارس ذات المهمتين، الجامع الأزهر الشريف، الذي أنشأه الفاطميون في مصر، في القرن الرابع الهجري، إلى جانب جامعات أخرى في بعض البلاد الإسلامية في الشرق والغرب.

من هؤلاء المتخصصين يمكن تعلم الدين ببعديه الأفقي والرأسي، أي الشامل والدقيق، وهم في ذلك درجات، بعضهم أكثر علمًا وأدق فهمًا، وأقدر على التعليم كذلك، واللّه سبحانه يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، ومهما بلغ علم أحدهم فهو قليل، كما قال رب العزة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فالعلم بحر لا ساحل له، ومن هنا لا ينبغي أن يغتر أي عالم - بله الجاهل - بما حصله من علم، فيدعي أنه بلغ فيه الذروة، ولا يوجد أحد أعلم منه، فيقصر عن الاستزادة أو يحقر غيره، ففي القول المأثور المنسوب إلى ابن المبارك: لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

وتعليم اللَّه لنبيه موسى على يد الخضر معروف، فقد جاء في الحديث: أن موسى عليه السلام خطب يومًا في بني إسرائيل فظن أنه لا يوجد أحد أعلم منه، فهيأ اللَّه له اللقاء بالخضر الذي قال له - وقد رأى عصفورًا يأخذ بمنقاره بعض الماء من البحر: مثل ما عندي وما عندك من العلم كمثل ما أخذ العصفور من البحر ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ - ٦٨] وللَّه در الشافعي إذ يقول:

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي
وإذا ما زدت علمًا زادني علمًا بجهلي

وقد حذر الإسلام من التصدي للتعليم دون خبرة ودراية، فذلك ضلال وإضلال، يقول النبي ﷺ: «**إن اللَّه لا يقبض العلم**

انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالا فأفتوهم بغير علم فضلوا وأضلوا»[1]، وقد كان الصحابة رضوان اللّه عليهم يتحرجون من الفتوى، ويحيل كل منهم على الآخر فيما لا يتأكد منه.

ثم إن مهمة تعليم الدين ليست مهمة معهد واحد، أو مؤسسة معينة، كما سبق ذكره، بل هي مهمة كل قادر عليه، في حدود معرفته، وبالقدر الذي يستطيعه، والأجهزة التي تحمل العبء الأكبر في هذه الناحية هي وزارات التربية والتعليم، والثقافة والإعلام، والأوقاف والشئون الإسلامية، إلى جانب المعاهد المتخصصة للتعليم الديني، وتخريج المعلمين، كالأزهر الشريف، في مصر، والجامعات الدينية في العالم الإسلامي.

وأرى أن يكون تعليم الدين أساسيًا في كل مراحل التعليم، بالقدر الذي يعرف به المسلم أصوله، وما لا ينبغي له أن يجهله، وذلك ليمارس التدين على نور، ويستطيع أن يحمي نفسه من كل فكر لا يتفق مع الدين أو يدفعه ويبطله إن كانت له القدرة على ذلك، أو يعرضه على المختصين ليقوموه.

وعلى رأس المواد التي يجب البدء بتعلمها وتعليمها القرآن

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

الكريم؛ لأنه أولا دستور المعارف كلها، وثانيًا يساعد على إتقان اللغة العربية التي نزل بها، صح في الحديث: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[1]، والمساجد لها دور كبير في تحفيظ القرآن، كما كانت الكتاتيب من قبل، وفي تعليم الدين لمن لم يتمكنوا من تعلمه في المؤسسات الرسمية، وبتعاون الجميع في هذه المهمة، يمكن أن تتضح الرؤية لمن ينادون بالعودة إلى الدين، من الشباب بالذات، إلى جانب القادة الدينيين الذين لا يملون من هذا النداء بالأسلوب المناسب.

* * *

(١) رواه البخاري.

دور الأزهر

وبهذه المناسبة أقول: إن من فضل اللّٰه تعالى على الأمة الإسلامية كلها، أن وجد معهد مكرّس كل جهوده لتعليم الثقافة الدينية أصولا وفروعًا ولغة، ولتخريج المعلمين لها، وذلكم هو الأزهر الشريف، الذي اختار اللّٰه له أرض الكنانة مصر، لموقعها الجغرافي الممتاز، وإمكاناتها الثابتة، وتاريخها العريق، فتيسر لها القيام بهذه المهمة الكبيرة.

وقد قام العلماء الذين تخرجوا منه بواجبهم في الدعوة الدينية، مراعين كل الظروف، وسالكين طريق الحكمة، إلى جانب دورهم البارز في الإصلاح الاجتماعي والسياسي، عندما كانوا يمثلون وحدهم الطبقة الواعية المثقفة، وما كان لهم من مكانة في نفوس الشعب والولاة جميعًا، حيث لم تكن هناك مجالس تشريعية، ولا مؤسسات ذات بال يلجأ إليها في رفع الظلم وفي الحكم بالعدل.

أما وقد تغيرت الظروف في الوقت الحاضر، فقد نزع اختصاص التشريع من العلماء، واستبدل به التشريع الغربي، ووجدت مؤسسات وتنظيمات جديدة وضع فكرتها الاستعمار،

للتخلص من الاستمداد من مصادر التشريع بمعرفة علماء الدين، وتنبه الفرنسيون والانجليز لخطورة دور الأزهر في مصر والعالم الإسلامي كله، وبخاصة في المناطق التي تعج بالخيرات، وتسابق الاستعمار لابتزازها والتحكم فيها، فهاجموه وقلصوا ظله، وصرح «جلا دستون» في مجلس العموم البريطاني، بأنه لا يقر للانجليز قرار في مستعمراتهم ما دام فيها المصحف والأزهر، فحصروا دوره في التعليم داخل جدرانه، وفي المساجد فقط، وأخذوا التعهدات على المنتسبين إليه بعدم الاشتغال بالسياسة، وحجبوا العلماء عن التعليم في المدارس التي أنشئوها؛ لأن مناهج التعليم فيها وضعت لخدمة أغراضهم، في المدارس الابتدائية والثانوية بالذات، وشجعوا المتخرجين في هذه المدارس بإسناد الوظائف إليهم، مع العمل على نضوب المورد الذي يمد الأزهر بطلابه، بمحاربة الكتاتيب، وإنشاء مدارس إلزامية لصرف الناس عنها.

كل هذا وغيره تخطيط استعماري، نفذه عملاؤه من الانتهازيين، أو السذج الذين لا يحسون بما يدور حولهم، وبما يدبر للإسلام والمسلمين من مؤمرات.

ومع بذل الجهد في تقليص دور الأزهر، وإبعاده عن المجال

السياسي والاجتماعي، لم ينس العلماء دورهم التقليدي، في نشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة بكل أشكالها، والدعوة الملحة للعودة إلى الدين، وتحكيمه في سلوكنا الفكري والعملي، ومحاربة الدخيل من العادات والنظم المنافية للدين، ولكن بالأسلوب الحكيم عن طريق القنوات الشرعية، التي حددتها النظم الجديدة.

وكانت نداءاتهم موجهة إلى كل المسلمين، حكومات وشعوبًا، وعن طريق هذه القنوات، استمرت الخطابة في المساجد، والكتابة في الصحف والمجلات، ونشر الكتب، والبث في الإذاعة المسموعة والمرئية، ونادوا كجزء من التغيير للوضع الحاضر المتدني، بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في العقوبات، وبالمحافظة على القيم والأخلاق، تطبيقًا للدستور الذي وضع بعد الخلاص من الاستعمار، ومن تحكيم قوانينه، والاهتمام بتغيير القوانين الوضعية، أو تنقيتها مما يخالف الشريعة، عن طريق مجالس التشريع، وذلك في البلاد التي تنص دساتيرها على أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام.

أما البلاد التي تسير في ركب العلمانية، فإن جهاد العلماء فيها شاق، وما تزال عندهم بقية أمل، أن يعرف المسئولون فيها

خطورة بعدهم عن الدين، وعسى أن يكون ذلك قريبًا، وبخاصة بعد أن رأوا إفلاس النظم، التي تنكرت للدين عشرات السنين، وعبدوا فيها المادة وعاثوا في الأرض فسادًا بقوة جبروتهم، فكان عاقبة أمرهم خسرًا.

وأنتهز هذه الفرصة وأقول: إن بعض المنادين بحتمية العودة إلى الدين، يبذلون جهدًا كبيرًا في السعي إلى تغيير القوانين لتكون مطابقة للشريعة، ولئن كان هذا سعيًا مشكورًا، فإن الإصلاح المنشود لا يقف عند هذا الحد، إنما المهم هو التطبيق والممارسة لا التقنين فقط، فلابد من ظهور أثر ذلك على السلوك الفردي والجماعي، فالقرآن الكريم، مع أنه دستور الحكم للأمة الإسلامية، وفيه المنهج السليم للإصلاح العام، مع معرفة المسلمين لمواده، نرى كثيرًا منهم لا يطبقونه في العبادات والأخلاق، كما نرى ذلك في القوانين الوضعية الصالحة، فبعضها معطل تمامًا في مجال التطبيق، والأمثلة على ذلك كثيرة.

* * *

دور الإعلام والفن

هذا، ولا ينبغي أن نغفل في هذا المقام، منابع الثقافة الأخرى - غير مؤسسات التعليم - كالصحافة والإذاعة والمسارح وغيرها، فلابد من تعاونها جميعًا في التوجيه السليم، أما أن يقصر أحدها أو يسير في اتجاه معاكس، فذلك له أثره الخطير في عدم الفهم أو تشويهه، وفي السلوك أيضًا، ضرورة التلازم بين الأمرين إلى حد كبير.

إن جهاز الإذاعة بالذات، وبخاصة المرئي، جهاز خطير في التوعية والتربية معًا، ذلك أن متحدثًا واحدًا يذيع أو يعرض، والذين يتلقون عنه ليسوا عشرات في فصل دراسي، أو مئات في مدرج أو مسجد، لكنهم آلاف وملايين يتأثرون به فكرًا وسلوكًا.

لقد فرض هذا الجهاز نفسه على الناس، لا تحجزهم عنه حواجز، في كل يوم تبتكر وسائل لزيادة فعاليته، لينقل كل ألوان الثقافة في شكل ترفيهي إلى العالم كله، عن طريق الأقمار الصناعية، وما يتنفس عنه التطور من وسائل أخرى، تجعل العالم كأنه طبق بين يدي الإنسان، فيه كل ألوان المأكولات، يختار منها ما يريد.

وهو إذا تحكم فيه المتلقي العاقل ليستقبل الخير الذي يبثه فقط، فمن الصعب أن يسيطر على بقية أفراد أسرته، وعندهم من العوامل ما يشدهم إليه، لا يستطيعون معه المقاومة، ولئن أمكنت السيطرة على كل من في البيت، فماذا يفعل فيما يذاع من الأجهزة التي تملأ الشوارع والبيوت المجاورة، والمحلات العامة، كالنوادي والمقاهي وما إليها؟

أنت لم تذهب إلى هذا الجهاز لتنتسب إليه وتتعلم منه بالمؤهلات والشروط المطلوبة، كما هو الحال في دور التعليم، ولكنه هو الذي سعى إليك وقال: هيت لك، يسر لك الحصول عليه، واقتحم بيتك حتى لاحقك في غرفة نومك، وساعة راحتك من ليل أو نهار، لا يحجزه عنك زمان ولا مكان، ومن هنا كان على المسئولين عن البث منه أن يراعوا القيم والأخلاق، إلى جانب المعارف الصحيحة، مع حسن استغلال العنصر الترفيهي حتى لا يكون فيه خروج على الآداب أو فساد للأخلاق، أو تضليل للأفكار، أو طغيان على البرامج الهامة الأخرى.

أقول هذا ولست في غفلة عن محطات الإذاعة العالمية وتيسير الأقمار الصناعية لسماعها ومشاهدتها، وما يخططه المسيطرون عليها من فرض أفكارهم على العالم وشدهم إلى

إنتاجهم في الميادين المختلفة، وبخاصة العالم المتخلف أو النامي، الذي تبهره هذه الغرائب، ويذوب فيها فكره وخلقه وماله، ويعيش أسيرًا لأصحاب هذه السموم، التي ينفثها بكل الوسائل، لبسط السلطان والنفوذ، على كل ما يستطيعون.

إن الأمر جد خطير، والجهاد في وسط هذه الميادين جهاد عنيف، والأجر فيه مضاعف؛ لأن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، فلنعد إلى مجتمعاتنا المحلية المحدودة، التي لن تعيش دائمًا محدودة ومنغلقة بعد وجود هذه المبتكرات الجبارة، لتقريب المسافات وسهولة الاتصالات.

أقول: إن الفن بوجه عام له دوره في الإعلام والتوجيه لا يجوز إغفاله، ويجب توجيهه وجهة الخير، ليتلاقى مع الأجهزة الأخرى في عملية التغيير المنشود.

❊ ❊ ❊

الانحراف في العلم

هذا، وقد يستحل بعض الغيوريين على الدين أمورًا محرمة؛ لأنه لا يعرف الحكم الديني الصحيح فيها، أو لا يعرف شروطها والتحفظات الموضوعة لها، سواء أكانت هذه المحرمات في خاصة نفسه أم في علاقته مع غيره، وقد يتمسك ببعض أمور تمسكًا يرفعها إلى «درجة الوجوب والإلزام» معتقدًا أنها من أعمدة الإسلام الذي ينادي بالعودة إليه، ويا ليته - كما سبق أن ذكرنا - اقتصر في ذلك على نفسه، بل حاول أن يفرضه على غيره بأية وسيلة من الوسائل، ويعد المتقاعس عنه خارجًا عن الدين خروجًا كليًا «كافرًا» أو مقصرًا فيه «فاسقًا» ويعامله على هذا الأساس، بما يورطه في أمور تجر عليه وعلى ذويه وعلى المجتمع نكبات ونكبات، بل تعطي صورة مشوهة عن الإسلام نفسه، والإسلام منها براء.

أذكر بهذه المناسبة أنني كنت في أحد اللقاءات مع طلاب الجامعة في إحدى المحافظات، فجرى على لساني لفظة عادية، التقطها أحد الشباب المتحمس لتطبيق الشريعة وقال لي: قد انطبق عليك الحديث الشريف: «**من حلف بغير اللّه فقد أشرك**» فقلت: هل كل من جرى على لسانه حلف بغير اللّه يعد مشركًا

حتى لو كان هو الرسول ﷺ؟ فلم يحر جوابًا، فقلت له: لقد صح أن الرسول ﷺ قال للرجل الذي سأله عن فرائض الإسلام، وحلف بأنه لا يزيد عليها ولا ينقص: «**أفلح وأبيه إن صدق**»[1]، فماذا تقول في ذلك؟ أنه لا يريد أن يتخاذل، رد فقال: المعنى أن الرجل أفلح هو وأبوه إن صدق.

هذه صورة من صور الجهل المطبق، لطالب جامعي يسير في ركاب المنادين بالعودة للدين، وهو لا يفرق بين واو العطف وواو القسم، ولا يعرف إعراب الأسماء الخمسة، بل ولا يعرف أن الرسول ﷺ ما قصد بذلك قسمًا يعظم به والد هذا الرجل، ولكنها كلمة تجري على الألسنة - كما قال شراح الحديث - ومثلها كثير في حياتنا العادية.

إن الجهل مصيبة كبرى، لو حللنا موقف هذا المسكين لأوشكنا أن نحكم عليه هو بالكفر، فإن من كفر مسلمًا - ولو كان عاديًا - عاد الكفر عليه هو إن لم يكن الثاني كافرًا، والحمد للّه أنا مؤمن، وأرجو اللّه أن يتم نعمته علي، ويلحقني بالمؤمنين الصادقين.

* * *

---

(١) رواه مسلم.

أهمية اللغة العربية

إن الجهل باللغة العربية التي هي مفتاح لفهم النصوص، يؤدي إلى جهل بالأحكام الشرعية، واللغة بحركات إعرابها، وقواعد تصريفها، وتركيب أسلوبها وأنواع البلاغة في هذه التراكيب، التي تقوم على الحقيقة والمجاز، والصريح والكناية، والحصر والقصر وما إلى ذلك، تحتاج إلى دراسة عميقة، وليس من السهل على من أخذ منها حظًا بسيطًا أن يستقل بفهم النصوص، فرب حرف يوضع مكان حرف يغير المعنى، ورب ضمة توضع بدل فتحة تغير المعنى، بل رب نقطة توضع في غير محلها تؤدي إلى خطأ كبير.

ومن الحوادث في ذلك:

١- عندما نزل قول اللّه تعالى في الصيام: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] وضع أحد الصحابة وهو عدي بن حاتم خيطين عند رأسه ونام، وانتظر طلوع النهار ليميز بينهما ويصوم فنزلت: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فعلم أنه المراد من هذا التعبير.

٢- قرأ أحد الناس من أوائل سورة التوبة: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] قرأها «ورسولِه» بجر اللام فصار المعنى أن اللّه بريء من الرسول كما أنه بريء من المشركين، وكان ذلك سببًا في الإسراع بوضع قواعد النحو لتصحيح النطق العربي.

٣- قال الشاعر الأزهري، الشيخ محمد الأسمر، أبياتًا من الشعر كلها غزل في فتاة من بيت يكون الغزل في نسائه جناية كبرى تصل إلى قطع الرقاب، ولولا أنه ذكر أن كلامه على التشبيه لا الحقيقة لنفذ فيه الحكم، قال:

عذراء من أرض قنا   شريفة المحلة
قبلتها فقهقهت   ضاحكة من قبلتي
ولم أزل ألثمها   حتى رويت غلتي
حبيبتي تلك وما   عنيت غير قلتي

هو يتغزل في القلة، التي تصنع من أرض قنا، ولها شهرتها القديمة - ومن بلد الأشراف الذين يسكنون هناك، والغزل في البنت العذراء في هذه المنطقة جزاؤه معروف.

٤- أحد القرويين كان يخطب الجمعة من ديوان لم يحسن قراءته، خطب الناس وقال: من أتى الجمعة فليأت بقفّة وسكّينة وفار، فجاء المصلون في الجمعة الثانية كل يحمل القفّة والسكّينة والفار، وفي زيارة أحد الفاهمين وجد هذا المنظر

فعلم أن الخطيب نطق خطأ هذه العبارة «من أتى الجمعة فليأت بعفة وسكينة ووقار» وضع على العين نقطتين، ووضع على الكاف شدة ونقص القاف نقطة.

الأمثلة كثيرة، ترينا إلى أي حد يكون الخطأ اللغوي مفضيًا إلى نتائج خطيرة.

* * *

خطر التعصب

أعود فأكرر أن من الخطأ الكبير أن يتولى غير متخصص فاهم قيادة جماعة اغتر بأنها وضعت فيه ثقتها، معتمدًا على بعض مسائل التقطها من كتاب خاص لمؤلف خاص، معتقدًا صدق كل ما فيه، متعصبًا له كل التعصب، غاضًا الطرف عن الآراء الأخرى في هذه المسائل، وهي لأئمة أعلام مشهود لهم بالريادة العلمية منذ القدم، وهذا المسلك مظنة لاتهام بعض الناس لهم بأنهم غير مخلصين للدين كدين، ولا في الدعوة إلى العودة إليه، أو أن تكون هناك أيد خفية تحركهم لغرض سياسي تتخذ الدين له ستارًا.

ومن المسلَّم به في منهج البحث العلمي - والإسلامي بالذات - أن التعصب لرأى اجتهادي غير متفق عليه خطأ كبير، حيث اعتقد المتعصب خطأ الآراء الأخرى من غير علم، واحتقر بالتالي من قال بها ومارسها عمليًا.

إن عمالقة الفكر الإسلامي، كان الواحد منهم يقول: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب، وكان يأخذ برأى غيره أحيانًا دون غضاضة، هل نسي هؤلاء، أن

الحديث الشريف يثبت أن المجتهد الذي توافرت فيه شروط الاجتهاد إذا أخطأ في اجتهاده لم يرتكب إثمًا ولكن يعطى ثوابًا على اجتهاده؛ لأنه بذل ما في وسعه من أجل الوصول إلى الحق، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

وهل نسوا أيضًا قول النبي ﷺ : «**من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال وإلا رجعت عليه**»[1].

* * *

---

(١) رواه مسلم.

أهمية التخصص

لو أنصف شبابنا الداعون بحماس إلى العودة إلى الدين ولهم تخصصات علمية - كالطب والهندسة والزراعة مثلًا - لتركوا ميدان التعليم الديني والتوجيه الدقيق لمن يحسنه من المتخصصين فيه، وتفرغوا هم لإتقان تخصصاتهم وإفادة المجتمعات منها، فهي في أهميتها لا تقل عن التخصص الديني، ولنتذكر جميعًا قول النبي ﷺ: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**» قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»(1).

من الغريب أن المتخصصين في فرع علمي لا يقبلون مزاحمة غيرهم لهم فيه، لا في الممارسة ولا مجرد اللقب، فكيف يستسيغون مزاحمتهم للمتخصصين في المعرفة الدينية؟ هل العلم الديني بهذا الهوان الذي يسومه كل مفلس؟ لست بهذا داعيًا إلى ما يسمى باحتكار الدين، أو إلى خلق كهنوت خاص، له الأمر والنهي والتحكم في مصائر الناس، ولكن أدعو إلى العلم الصحيح، وبعد إتقانه والاطمئنان إلى كفاءة المتعلم، يكون له الحق كل الحق في تعليم غيره، وتولي قيادة التوجيه، شأن أي تخصص آخر، هو حق لكل راغب فيه، بعد التعلم والاستعداد له، بالأساليب التي اتفق

(1) رواه البخاري.

عليها القائمون على مناهج التعليم.

وبهذا يظهر خطأ من يرددون هذه العبارة: «الدين للجميع» ولا يحددون المعنى المراد منها، فإذا كان المراد بلفظ الدين هو التدين، أو تطبيق تعاليم الدين، والتعبد للّه به، فالجميع مكلف بذلك، وليس هذا حقًّا بل هو واجب، فالدين جاء هداية لجميع الناس، لا لقوم مخصوصين، أما إذا كان المراد بهذه العبارة وهي: «الدين للجميع» هو علم الدين، فعلم الدين يحتمل وجهين، الوجه الأول هو تعلم الدين، وذلك حق للجميع، بل هو واجب وجوبًا عينيًا، أو كفائيًا على الوجه الذي وضحه العلماء، ويمكن الرجوع إليه في كتاب العلم في: «إحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد الغزالي، حيث ذكر أن كل مكلف عليه أن يعرف من دينه المبادئ الأولى، التي يصحح بها عقيدته، ويعرف واجبه نحو ربه ومجتمعه، والوجه الثاني هو تعليم الدين، وذلك على إطلاقه ليس للجميع، بل هو خاص بمن تعلموه وفهموه جيدًا، فإن لهم أن يعلموا غيرهم القدر الذي علموه، بل يجب عليهم ذلك في بعض الأحوال، وجوبًا عينيًا، أو كفائيًا، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

* * *

أهمية التعاون

ألا فليعلم الناس جميعًا أن كل التخصصات لازمة لرقي المجتمع، وبتعاونها يكون الخير، وليس بتنازعها يستفيد المجتمع، إن عالم الدين يحتاج إلى الطبيب ليعالج مرضه، وإلى المهندس ليقيم له مشروعه، وبالمقابل يحتاج الطبيب والمهندس وغيرهما إلى من يصحح لهم عقيدتهم، ويرشدهم إلى حكم اللَّه في العبادة والسلوك.

ومن الخطل والضلال أن يزعم إنسان أنه يستطيع أن يفتي بصدق، في كل ما يعرض عليه من مسائل الدين، والطب والهندسة والكيمياء، وغيرها، فليس في الدين ولا في العقل من يعرف باسم: «أبو العريف» اللهم إلا في مقام الإعجاز.

وأذكر بهذه المناسبة أن شخصًا ادعى أنه محيط بكل شيء علمًا، لا يلقى عليه سؤال في أي موضوع إلا بادر بالإجابة عليه بسرعة أذهلت كل الحاضرين، فاتفق جماعة أن يخترعوا اسمًا جمعوه من حروف، اخترع كل منهم واحدًا منها، وكونوا منها لفظ: «خنفشار» فلما سألوه عنه أسرع كالعادة بالجواب وقال: إنه شيء يعقد به اللبن ليصير جبنًا، واخترع شاهدًا من الشعر

وقال: قال الشاعر:

لقد عقدت محبتكم بقلبي كما عقد الحليب الخنفشار

فدهش الجميع لضلاله وذكائه في هذا الضلال.

يجب أن نفهم مرة أخرى أن كل التخصصات مطلوبة، وبتعاونها يكون الخير، لنعيش في سلام، ونوجه طاقتنا إلى الميادين والأنشطة المناسبة، ومن المؤسف أن بعض الشباب يحرم على نفسه وعلى غيره أن يدرس العلوم: «المدنية» كالطب والهندسة، معتقدًا أنها علوم كفر لأنها غير دينية، وأن المؤسسات التي تعلمها أيضًا كافرة، ثم يحاول - دون استعداد أصيل - أن يكون موجهًا ورائدًا دينيًا للناس، وكيف يكون ذلك وفاقد الشيء لا يعطيه؟.

قل لي أيها «المسلم»: إذا مرضت فمن يداويك؟ قد تقول - وقد قيل - إن الطبيب هو اللَّه، كما قال سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وأقول لك: حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء.

صحيح أن الشفاء الحقيقي من عند اللَّه، وبإرادته وتوفيقه للطبيب المعالج، لاشك في ذلك، ولكنه سبحانه ربط بين الأسباب والمسببات، والرسول ﷺ نفسه - وهو في قمة

المؤمنين بهذه الحقيقة، دعا إلى التداوي، فإن اللّٰه لم يضع داء إلا وضع له دواء، علمه من علمه وجهله من جهله، وفي ذلك روايات مختلفة مع اتفاقها على المبدأ، وهو جواز التداوي، بل الأمر به، والرسول عليه الصلاة والسلام تداوى وداوى غيره بما يعرفه من عادات العرب، وكتاب: «الطب النبوي» لابن قيم الجوزية، فيه الكثير من ذلك.

* * *

منزلة علماء الدين

من أخطر ما وجد بين العاطفيين، أنهم صرفوا الناس عن أخذ الدين ممن تخصصوا فيه، والداعي إلى ذلك لا يخرج عن أمور:

أ - ادعاء أن علماء الدين لا يفهمونه، وهم وحدهم الفاهمون، أو أن أحد العلماء السابقين أو الحاليين، الذي يأخذون عنه، هو الفاهم وحده للدين، وأعتقد أن أبسط إنسان يرفض ذلك باحتقار، ولا حاجة للاستدلال على بطلانه، وهذا طعن في أحد طرفي الكفاءة، وهو المقدرة العلمية.

ب- ادعاء أنهم مغرضون مسخرون لخدمة ذوي السلطان البعيدين عن الدين - كفرًا أو فسوقًا - يحللون ويحرمون كما يملى عليهم، ولا يقولون الحق لوجه اللّه سبحانه، وهذا طعن في الطرف الثاني للكفاءة، وهو الخلق، فجدارة العامل في أي مجال تقوم على الدراية والأمانة، كما جاء في قول سيدنا يوسف لعزيز مصر: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

وكما قالت بنت شعيب لأبيها، عن سيدنا موسى: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]،

وهذا الاتهام إن لم يكن باطلًا من أصله، فهو باطل في التعميم، ولو صح الاتهام في فرد أو أفراد يعدون على الأصابع، فإنهم سينكشفون بسرعة، وتبقى الجدارة والثقة لسائر العلماء، الذين لا يغيب عنهم قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، فهم ورثة الأنبياء كما قال النبي ﷺ.

جـ - أنهم يأخذون رواتبهم من خزانة الحكومة، وهي حرام أو مخلوطة به، فهم ينهون عن المنكر ويفعلونه، ومن هنا لا يصح الاقتداء بهم أو الثقة في كلامهم.

وأحيل القارئ على ما ذكره الإمام الغزالي في «الإحياء» عن اختلاط الحلال بالحرام، وكيف يكون التصرف إذا تعذر فصل أحدهما عن الآخر، وأن الرسول ﷺ وأصحابه كانوا يأخذون الجزية من أهل الكتاب، وأموالهم مشوبة بالحرام، كالربا وبيع الخمر والخنزير، بل كانوا يعاملون اليهود ويقترضون منهم دون حرج.

ثم أقول: هل الرواتب هي المحرمة فقط؟ إن جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، طائعهم وعاصيهم، يأكلون ويلبسون ويتمتعون بما توفره لهم الحكومات بطرق شتى، من الضرائب والمعونات

والاقتراض وغير ذلك، من طرق إن لم تكن محرمة ففيها شائبة التحريم، هل المعترضون مغالطون لأنفسهم أو لمن يتبعونهم؟ ألا قاتل اللَّه الجهل وهدى الجاهلين!

إن الناقمين على علماء الدين؛ لأن قلة نادرة ليست ملتزمة كما يقولون بكل ما جاء به الدين، وبخاصة في المظهر الخارجي، الذي كان عليه النبي ﷺ من اللحية والعمامة، والملابس البيضاء وغيرها، هؤلاء الناقمون يستفيدون من علوم الكفار، وخبراتهم، وابتكاراتهم، واكتشافاتهم، وهم بالطبع أسوأ حالًا من المسلمين عقيدة، إن لم يكن عقيدة وسلوكًا، فكيف يكون هذا السلوك مع علماء المسلمين.

من الذي اخترع القاطرة والسيارة والطائرة والطابعة، واكتشف الكهرباء التي انتقلت بالحضارة نقلة هائلة، تضاء المنازل، وتبرد المشروبات، وتحفظ الأطعمة، وتغسل الملابس، وتسمع الإذاعات، وتعرض المشاهد الحية في حينها، منقولة من أقصى المعمورة بالقمر الصناعي، وما يجد من وسائل؟

إن الذين تمت على أيديهم هذه الإنجازات لا يدينون بالإسلام، بل منهم من هو أشد عداوة للمسلمين، ومع ذلك نتقلب في النعيم الذي أجراه اللَّه على أيديهم، ولا نرى بأسًا من

الإفادة والتمتع بها، حتى في نشاطنا الديني، عبادة ودعوة بمكبرات الصوت، وعقد الندوات وتسجيل المحاضرات، وتصوير الاجتماعات، والانتقال للتبليغ، وزيارة الأماكن المقدسة، وطبع الكتب والنشرات، والإذاعة الموجهة إلى أقصى البلاد.

لقد أجاب عالم قديم على مثل هذا الاتهام فقال:

اعمل بعلمي ولا تنظر إلى عملي ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

وكما قيل لبعض الخلفاء: إن الوالي فلانًا له مخالفات سلوكية، على الرغم من كفاءته في عمله، فقال: لنا علمه وعليه عمله، استفدنا من خبرته، والله يجازيه على تقصيره.

* * *

الدين منهج حضارة

إن خلق فجوة بين الناس وعلماء الدين وراءه سر خطير، وهو في أدنى صوره دوام انغلاق الأفكار، على ما هي عليه، والخوف عليها من التبدد أمام الأشعة القوية من العلم الصحيح، من أجل المحافظة على الكسب المادي أو الأدبي المزعوم.

أعود فأكرر أن فهم الدين لا يكون إلا عن طريق الدراسة العميقة لنصوصه وروحه ومقاصده وأهدافه، ولأضرب مثلًا من أمثلة كثيرة نعرف منها كيف نفهم الدين على أنه منهج حضارة، وتقدم وسعادة مثالية في الدنيا والآخرة:

كثيرون من العامة، أو ممن يتولون الدعوة لحل الأزمات، عن طريق الدين، مؤكدين هذا الشعار، الإسلام هو الحل، الذي بينا صدقه بما فيه الكفاية، يستشهدون بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وهذا حق لا مرية فيه؛ لأنه كلام اللّه، وأيده واقع التطبيق.

لكن يجب توضيح معنى الآية ليفهمه الناس ويطبقوه - إن أرادوا - على الوجه المطلوب، إن الآية فيها شرطان أساسيان،

من أجل الرخاء وكثرة الخيرات، التي تفيض من كل ناحية، هما الإيمان والتقوى، فهل معنى الإيمان هو النطق بالشهادتين، والاعتقاد بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وسائر العقائد وكفى؟ لا، إن المنافقين الذي عاشوا أيام النبي ﷺ، كانوا ينطقون بما ذكر، بل يؤكدونه بممارسة بعض الشعائر الدينية كالصلاة ظاهرًا أمام الرسول والصحابة، ومع ذلك أكد القرآن أنهم غير مؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

وقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ولم ذلك؟ لأنهم كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

* * *

المعنى الصحيح للإيمان

الإيمان الصادق ليس ادعاء وشعارًا وقولة باللسان فقط، ولكنه إذعان بالقلب، وانفعال به، يظهر على السلوك، دون حاجة إلى رقيب من قريب أو بعيد، المؤمن الحقيقي لا يخشى إلا الله، ولا يرجو سواه، شاكر لأنعمه راض بقضائه، لا يذل ولا يهون، ولا يؤثر الفانية على الباقية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

المؤمن الحق هو الذي يحس دائمًا بحاجته إلى الله، لا تبطره نعمة، ولا يبعده عنه منصب، يعقد قلبه على التوحيد المجرد، مهما اشتدت الخطوب، إنه صفة المخلصين لله، المعتمدين عليه في كل حال، كإبراهيم عليه السلام، الذي قال عن ربه، كما حكى القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ

يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ . ٨٢] كان آخر ما قاله عندما ألقى في النار - كما ثبت في الحديث - «**حسبي اللّه ونعم الوكيل**».

يقول العلماء: إن قوله هذا جاء على أثر قول جبريل له في اللحظات الأخيرة قبل أن يلقى في النار: «**ألك حاجة؟ فقال له: أما الحاجة إليك فلا، وأما الحاجة إلى اللّه فنعم، علمه بحالي يغني عن سؤالي، حسبي اللّه ونعم الوكيل**»، ويزيد بعضهم توضيحًا لذلك فيقول: قال إبراهيم لجبريل عندما عرض عليه مساعدته: «**أنت عبد ضعيف، وأنا عبد ضعيف، فكيف يعتمد الضعيف على الضعيف؟**» وسواء أكان هذا التوضيح وقع حقيقة أم كان بلسان الحال لا بلسان المقال، فإن نتيجة التوحيد الخالص كانت في قوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وبعيدًا عن ساحة الأنبياء، الذين هم المثل العليا في قوة الإيمان، وصدق اليقين، وتأييد اللّه لهم بخوارق العادات، يحكي التاريخ أن أهل قرطبة بالأندلس أصابهم قحط، احتاجوا معه - كما هي السنة - إلى صلاة الاستسقاء، فخرجوا إلى

الخلاء، ومعهم الأطفال والبهائم وسائر الضعفاء، وطلبوا قاضي المدينة، وهو «أبو سعيد البلوطي» أن يخرج معهم ليؤمهم في الصلاة ويشاركهم الدعاء والتضرع إلى اللّه، فسألهم: هل خرج معكم كل من في المدينة؟ فقالوا: ما بقي فيها إلا المترفون الذين لا يعانون كما نعاني، فأقسم ألا يخرج معهم حتى يخرج هؤلاء، فلما ذهبوا إليهم وعادوا إلى البلوطي أخبروه بخروجهم، فاستعد للخروج ونادى على غلامه أن يحضر له الممطر - أي الكساء الذي يقي من المطر- فقالوا له: وهل أيقنت أن السماء ستمطر؟ قال: نعم ما دام هؤلاء قد خرجوا ليشاركوكم التضرع إلى اللّه: «إذا خضع جبار الأرض رحم جبار السماء».

هذه بعض المظاهر التي تدل على أن الإيمان الصادق هو الذي تفتح على أساسه البركات من السماء والأرض، وليس هو مجرد النطق بالشهادتين، مع انعدام معناه الحقيقي في النفوس.

* * *

حقيقة التقوى

أما التقوى التي هي الشرط الثاني مع الإيمان باللّه لفتح البركات فليست هي - كما في مفهوم كثير من العامة - العبادات المعروفة، من صلاة وصيام وزكاة وحج، وقراءة القرآن والذكر والدعاء، والاعتكاف في المساجد فقط، وما عدا ذاك من أنشطة خيرية لا تدخل في نطاق التقوى، لا، إن التقوى بمفهومها الصحيح، هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهذه كثيرة تتعدى الدائرة المذكورة من العبادات، فتشمل الأخلاق الشخصية، والاجتماعية، والعمل المنتج، الذي تعف به النفس عن المذلة، والاستجداء والاستدانة، وتشمل بر الوالدين، ورعاية الأولاد، وحسن العشرة الزوجية وصلة الأرحام ورعاية حقوق الجوار، والأصدقاء والرؤساء والعاملين، وما إلى ذلك من كل نشاط خيري.

جاء في الحديث الصحيح: «**على كل مسلم صدقة**»[1]، وليست هي الزكاة فقط، أو دفع مال لمحتاج، ولكنها كما جاء في الحديث الصحيح: «**وكل معروف صدقة**»[2]، كما أن البعد

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري.

عن كل المحرمات الظاهرة والباطنة، الشخصية والاجتماعية، يدخل في مفهوم التقوى والصدقة كما صح في الحديث: **«فإن إمساكك عن الشر صدقة»**[1]، فالتقوى سلوك كامل، يقوم على فعل الخير، والبعد عن الشر.

لو أن التقوى فهمت فهمًا صحيحًا، وطبقت على الوجه الصحيح، لجاءت البركات من كل جانب، ولكن من المؤسف أن كثيرًا من المسلمين اليوم - لقلة حصيلتهم العلمية أو عدم وضوحها - ومن يحرصون على التقرب إلى اللَّه والتمسك بالدين، يركزون في التقوى على جوانب خاصة منها، وترك الجوانب الأخرى، التي قد تكون أهم - أو على الأقل مساوية لها في الأهمية - فيرضى أحدهم مثلًا بالصدقة تعطى له، مع قدرته على الكسب، مكتفيًا بالخلوة والتعبد في المساجد والزوايا، بالصلاة والذكر والقراءة للقرآن والأوراد، مرددًا لتبرير خطئه - قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] مؤولا إياه بأن المطلوب من العبد هو العبادة - بمفهومه هو - فاللَّه ما خلقه إلا لها، ولا شأن

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

له بالرزق، فقد تكفل الله به، مؤكدًا هذا الفهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وهذا خطأ جسيم في فهم الآيات، فالله سبحانه طلب من الجن والإنس أن يعبدوه وحده، لم يطلب منهم في مقابل ذلك رزقًا يقربونه إليه ليأكله ويعيش عليه، كما كان المشركون يقربون القرابين لآلهتهم، فهو سبحانه غني غير محتاج لشيء؛ لأنه هو الذي يعطي الرزق لغيره، وقوي لا يحتاج إلى معونة أحد من خلقه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال في السعي لتحصيل الرزق الذي تكفل الله به: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] إن القارئين لبعض النصوص متغاضين أو جاهلين النصوص الأخرى التي توضحها، مخطئون، كمن يقرأ فقط: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أو ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

لقد صحح النبي ﷺ مفهوم العبادة والجهاد والتوكل على الله، لجماعة من أصحابه، غابت عنهم المعاني الصحيحة لها، فعن كعب بن عجرة قال: مر على النبي ﷺ رجل فرأى أصحابه

من جَلَده ونشاطه فقال: يا رسول اللّه، لو كان هذا في سبيل اللّه!! فقال لهم: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل اللّه، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل اللّه، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل اللّه، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان**»[١]، وفي الحديث أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ مر بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب!! ولن أفعل حتى أستأذن رسول اللّه ﷺ فذكر ذلك له فقال: «**لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل اللّه تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر اللّه لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل اللّه، من قاتل في سبيل اللّه فواق ناقة وجبت له الجنة**»[٢]، وفواق الناقة - بضم الفاء - هو ما بين رفع اليد عن ضرعها عند الحلب ووضعها، وقيل: ما بين الحلبتين.

أقول: لعل هذا كان في وقت يحتاج فيه الرسول ﷺ إلى الجهاد؛ لأنه في حرب قائمة، أو حرب متوقعة (حالة حرب)

---

(١) رواه الطبراني بسند صحيح.
(٢) رواه الترمذي وقال حسن. والحاكم وصححه.

فالكل لابد أن يكونوا مشاركين فيها، أو مستعدين لها أما في وقت السلم وهدوء الحال، فإن الإقبال على العبادة خير ما يمضي به الإنسان وقته، وعليه يحمل قوله ﷺ: «**ألا أدلكم على ما يكفر اللَّه به الخطايا ويرفع به الدرجـــات؟**» قالوا: بلى يا رسول اللَّه، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**»(١)، (ثلاث مرات).

وبين النبي ﷺ أن الدين ليس عدوًا للغنى والثراء، فقال: «**نعم المال الصالح للعبد الصالح**»(٢)، وهناك نصوص كثيرة من هذا القبيل في رسالتي: «الإسلام دين العمل»، «الإسلام والتحرر من الجوع».

وفي القرآن الكريم نعي على الانتهازيين، أو الجاهلين الذي يقنعون بالشعارات الظاهرة، لينالوا كسبًا دنيويًا، فقال تعالى في الأعراب الذين سمعوا عن عطاء الرسول للمحتاجين، فوفدوا إليه يتظاهرون بالإيمان من أجل عطائه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا

(١) رواه مسلم وغيره.
(٢) رواه أحمد.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

إن صلاح المجتمع لا يكون بالفهم الخطأ للإيمان والتقوى، يكفي أن أذكر الحديث الذي يقول: «**بينا رجل يمشي بفلاة من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة** – أرض بها حجارة سوداء – **فإذا شرجة** – **مسيل الماء** – **من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بِمِسْحَاتِهِ** – فأسه – **فقال له: يا عبد اللَّه ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد اللَّه لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول، اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه**»[١]. فتولى الرجل ولسان حاله يقول: بهذا استحققت أن يذكر اسمك في السحاب، مادمت قد شكرت اللَّه على النعمة ولم تنس الفقراء من عباد اللَّه الذي أمدك بالماء من حيث لا تحتسب.

اقرءوا ما يؤكد أن للتقوى مفهومًا أوسع، وأن العبادة لا قيمة لها إن لم تثمر سلوكًا حسنًا مع النفس ومع الغير، قال تعالى:

---

(١) رواه مسلم.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١ - ٧]. فالذي نزعت الرحمة من قلبه فيكره اليتيم ويقسو عليه، ولا يساعد المحتاج حتى بمجرد التوجيه لمساعدته، هو كالكافر الذي يكذب بالبعث يوم القيامة؛ لأنه نسي المساءلة على النعمة التي أعطاه اللَّه إياها، ونسى واجبه نحو الضعاف والمحتاجين، فهم عيال اللَّه، فعاش لنفسه فقط.

إن صلاتهم التي يصلونها ناسين حكمتها من التنزه عن الفحشاء والمنكر، ويؤدونها أداء شكليًا خاليًا من الروح من أجل أن يقول الناس عنهم، لافتتانهم بالشعارات: إنهم صالحون، وكثيرًا ما يسهون مشغولين بالدنيا، هذه الصلاة مردودة عليهم، وسيلقون عذابًا شديدًا؛ لأنهم يمنعون مساعدة المستعينين بهم، وهم قادرون عليها، ويوضح هذه الصورة قول اللَّه تعالى في الحديث القدسي: «**إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصرًا على معصيتي وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل ورحم المصاب**...»[1].

هذه هي وسائل فيض البركات من السماء والأرض، عقيدة

(١) رواه البزار، ورواته ثقات ما عدا عبد اللَّه بن واقد الحراني.

صحيحة نظيفة قوية، وحركة مدفوعة بها لتنتج الخير في كل ميدان، ثقة بالله واستمدادًا للعون منه، وتراحم وتعاون وجد ونشاط، لا ادعاء ولا تظاهر، ولا عجز ولا تواكل، ولا كسل ولا تراخي.

فلابد من فهم الدين فهمًا صحيحًا على يد المتخصصين الفاهمين بصدق، والباب مفتوح لكل من يريد التعمق في دراسة الدين، والوسائل متعددة، والمهم هو الرغبة الصادقة.

إن التصور الصحيح للدين قبل ممارسته وتطبيقه، هو الخطوة الأولى على طريق النهوض بالمجتمع الإنساني، ومن أجل هذا أرسل الله الرسل لإرشاد الناس إلى الطريق المستقيم: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وكانت أول مادة في دستور الرسالة الإسلامية لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وانتشالهم من هوة الضلال المبين، آية تتحدث عن العلم، وأهم وسائل الحصول عليه، بالكتابة بالقلم، والقراءة والاطلاع: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥].

والقرآن كله علم تصحح به العقيدة ويقوم السلوك، قال

تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥- ١٥٧]. وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

إن ممارسة التدين بدون تصور صحيح له، تخبط وضلال، تمامًا كالذين ينادون بالحرية والديمقراطية والمساواة جاهلين أن لكل منها حدودًا وضوابط وآدابًا تحكمها وتوضح معانيها الصحيحة، إنهم ينادون بها ولاحظ لهم من فهمها إلا الانطلاق والتحلل والسباب، والإقذاع وتسفيه آراء المخالفين، والتعصب والغرور، وإهدار القيم الأدبية، بعدم إنزال الناس منازلهم وتقديرهم قدرهم.

والنصوص كثيرة في منافاة ذلك للدين؛ لأنهم فهموه خطأ واستغلوا شعاره استغلالاً سيئًا، كالقولة المشهورة عند الغرب: مظلومة أيتها الحرية، كم باسمك ارتكبت جرائم !!

ثانيا: الحال:

هذا التعبير المتعارف عليه عند المشتغلين بالتصوف علمًا

وعملًا، يراد به الوجدان الذي يحس الإنسان أثره في قلبه ارتياحًا أو نفورًا، وقد يعبر عنه بالاقتناع في المفهوم الجاري بين الناس الآن، وهذا الحال هو الخطوة التالية للعلم والتصور، والاقتناع المعول عليه، سواء أكان بالقبول أم الرفض، يجب أن يكون نابعًا من داخل النفس، والتكيف بما انتهى إليه العلم والتصور، لا شكلًا ظاهريًا للوصول إلى غاية يكثر أن تكون عاجلة ووقتية، ولا أمرًا مكرهًا عليه تحت ضغط أو تهديد، أيًا كان مصدره، فالأول نفاق عارض، يدوم ما دام الإغراء موجودًا، والتمويل مستمرًا، والآمال الوردية تخلب الألباب، فإذا انقطع ذلك عاد المنافق سيرته الأولى كما يقول القائل:

صلى وصام لأمر كان يطلبه لما انتهى الأمر لا صلى ولا صاما

والثاني ليست له القوة الثابتة، فالمكره يحاول التملص من سبب الإكراه، كالعضو الغريب يراد به ترقيع الجسم، لا يلبث أن يرفضه، وعند زوال الضغط يعود المكره إلى ما كان عليه من قبل، كالمسوقين بعصا الثورات التي تسيطر عليها روح الانتقام، لا إرادة الإصلاح من أجل الإصلاح، كما هو مشاهد في عصرنا، في بلاد سيطر عليها الضغط زمنًا، فتولد عنه الانفجار، الذي أعاد للإنسان حريته وكرامته ، بعد أن ظل حينًا كالترس في الآلة، يتحرك أوتوماتيكيًا لا حول له ولا قوة.

إن الاقتناع الحقيقي هو النتيجة للدراسة المتأنية، لجدوى العودة إلى الدين، نعم لابد من الاقتناع بهذه الصورة، لينزل التصور الذهني المعلوم بالعقل، ويستقر في القلب، ويهبط المدرك من الفكر إلى الوجدان، والذي يخلق فينا هذا الاقتناع عدة أمور أهمها ثلاثة: شهادة النقل، وشهادة العقل، وشهادة الواقع.

أ- النقل:

أما النقل فيكون بالرجوع إلى النصوص التي تثبت أثر الدين في الرقي، وأصحها ما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، فما فيهما حق لا مرية فيه، وبخاصة ما كان قطعي الثبوت والدلالة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، والرسول ﷺ صادق فيما نسب إليه بحق؛ لأن الصدق من الصفات الأساسية للرسل كافة. ومن النصوص - وإن كان قد مر بعضها - قوله تعالى في شأن الدين بوجه عام: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وإذا أريد بالقرى ما سبق ذكرها في السورة، من القرى التي أرسل إليها نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، فإن اللفظ عام يشمل كل الرسل، وكل الأقوام الذين أرسلوا إليهم، وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً

غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وعن الدين الإسلامي بالذات: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] وقول النبي ﷺ: **«تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدا، كتاب الله وسنتي»**[1].

ب- العقل:

وأما العقل فإن الاقتناع بفائدة الدين يكون بدراسة مبادئه دراسة واعية، مع مقارنتها بالمبادئ التي اتفق عليها الفلاسفة والمصلحون، وقامت عليها الحضارات الكبرى، وسنرى من هذه الدراسة المقارنة، أن ما جاء به الإسلام أصدق وأحكم

---

(١) رواه الحاكم وصححه وروى مثله الطبراني بإسناد جيد.

وأوفى وأشمل، إن هذه الدراسة تحتاج - لتكون ميسرة ومقنعة - إلى استخراج المبادئ أولا، وتصنيفها في مجموعات نوعية، كالعقائد والعبادات، والأخلاق والمعاملات، وأصول الحضارة وما إليها، ثم التعبير عنها بأسلوب يشابه أو يقارب الأساليب الحديثة؛ ذلك لأن أسلوب القرآن بالذات - وهو معجز - فهمه المعاصرون؛ لأنه نزل بلغتهم، لكن اللغات تتلاقح، والأساليب تتغير، والمفاهيم أيضًا قد تتغير بتغير العرف والاصطلاح.

* * *

أسلوب العصر

ولكي نؤكد أن القرآن هداية للعصر الحاضر - كما كان هداية للعصر الماضي بناء على عالميته في العموم والخلود - لابد من تقريب معانيه إلى الناس اليوم، واستخدام تعبيراتهم وأساليبهم بمفهومها الصحيح، ليستطيعوا فهمه بقدر أكبر، وهذا أمر يحتاج إلى مهارة فائقة في استنباط المبادئ أولا، ثم في التعبير المطلوب عنها ثانيًا.

وبحمد الله يوجد في العلماء المعاصرين من عنوا بذلك واسترشدت أنا بما وصلوا إليه في كتابي: «الدعوة الإسلامية دعوة عالمية» ووفقني الله إلى الحديث المستفيض عن مقومات هذه الدعوة، وإثبات تفوقها على مقومات الديانة العالمية، التي اقترحها فلاسفة العصر، كقيمة العقل وأهمية العلم، والحرية والمسئولية والنزوع إلى الكمال، والمساواة والعدالة، والتعاون والتعايش السلمي، مع التركيز على مراعاة الطبيعة البشرية في التشريع، بالتوفيق بين مطالب الروح والجسد، ويسر التكاليف، ووفاء التشريع بكل قطاعات الحياة، وصلته القوية بالحضارة والمدنية والتطور، وما إلى ذلك من المبادئ التي جاءت بها نصوص الدين، وشرحها علماء الإسلام، وطبقها المسلمون

تطبيقًا صحيحًا.

كما وفقني الله في محاولة تقريب معاني الدين للفهم، باستخدام الأسلوب الحديث بقدر المستطاع، وذلك في كتابي: «من نور القرآن الكريم» ففيه نماذج جديدة من أساليب الربط بين الدين والحياة، تتحدث عن مقومات الزعامة في شخصية الرسول محمد ﷺ، ومثل رائدة من حياة المصلحين في شخص سيدنا شعيب عليه السلام، وإعداد القادة في مدرسة النبوة، والمنهج التربوي في تشريع الصيام، ومنزلة العمل، ونظام إدارة الأعمال ومنهج النقد السليم، وإعجاز القرآن في دقة التخطيط، ولقمان الحكيم وسياسة التعليم، وغير ذلك من الموضوعات في هذا الكتاب وغيره.

وكذلك قام كثيرون غيري بجهود كبيرة في هذا المجال ممن دفعتهم تخصصاتهم إلى الربط بينها، وبين القرآن والسنة بالأسلوب الحديث، وفي أحاديث قصيرة مركزة جدًا اتبعت هذا المنهج، وجمعتها في كتاب بعنوان: «منارات على الطريق» جعلت هذا الكتيب تقديمًا له.

أعتقد أن استعمال الأسلوب الحديث - والناس فيه مواهب ودرجات - في محاولة الربط بين الدين والحياة، يجعل الذين

تثقفوا ثقافة بعيدة عن الدين ولا يتحمسون للدعوة إلى العودة إليه كمنهج حياة، حيث لا يصلح في زعمهم إلا للعصور التي نزل فيها، والعقول في رقي، والحياة في تطور - يجعل هؤلاء يعيدون النظر في فكرتهم عن الدين، وقد ينقلبون - إذا هداهم اللّه - دعاة متحمسين إليه؛ لأنهم أحسوا حلاوته، وبخاصة عندما يقارنون مبادئه بما تعلموه على غير مائدته.

لكن مع تشجيعي لهذا الأسلوب أحذر من الإسراف فيه، بمثل تفسير النصوص بكل مستحدث جديد، مما لا يزال في دور النظرية، وفي حقل التجربة، ففي ذلك خطورة على الدين نفسه في فهمه، عندما يظهر فساد هذه النظريات، وعقم هذه التجارب، وهذا ذنب لا يغتفر لمن يتحمسون للدين على غير وعي وحذر، وحسابهم على اللّه بقدر نياتهم، وقد وضحت هذه النقطة في كتابي: «دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة» حين تحدثت عن العلاقة بين الدين والعلم، وعن القرآن والمكتشفات الحديثة.

قلت: إن الدارس للدين بنصوصه في القرآن والسنة، لابد أن يكون من طراز ممتاز في الأخذ بالقديم والحديث معًا، ومزجهما في شراب سائغ يروي ظمأ الظامئين، لمعرفة حقيقة

هذا الدين، ومدى تجاوبه مع العصر، وفي دواء ناجع يزيل مرض الشاكين في كون مبادئ الإسلام تصلح للتطبيق في عصر الذرة وغزو الفضاء، ولهذا أرى أن توضع في مناهج التعليم الديني أو في تخصصات الدعوة على الأقل مواد ثقافية عن الحياة التي يعيشها الناس، في الكيمياء والطبيعة، والجغرافيا والتاريخ، والفلسفة وغيرها، والتسلح أيضًا بلغة أجنبية أو أكثر، كنافذة أو مفتاح، للاطلاع على الثقافات العالمية، وأخذ ما يساعد منها على فهم الدين وتوضيح حقائقه، وعرضه على الناس، وبخاصة غير المسلمين، ومن يتجهون إلى العلمانية، وعدم الالتزام بدين.

وإذا رأيت ذلك فليس معناه أن تطغى هذه العلوم والمعارف على أساسيات التعليم الديني، أو تزاحمها حتى تزيل صبغة التخصص الذي قامت عليه الجامعات الدينية مئات السنين، ولقد كان النظام السابق على قانون تطوير الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م يعني بالدراسات الحديثة، بالقدر الذي يساعد على الرؤية الصحيحة لعلوم الدين، التي كانت تدرس دراسة حفظت لهذا المعهد تخصصه، وألبسته ثوبًا يعيش به مع العصر، وخرجت دعاة ممتازين.

وأنبه إلى أن دراسة العلوم الدينية الموروثة بأسلوب معاصر، أو مع معارف حديثة، لا أعني بها تطويع الدين للعصر، كما تنادي به بعض الحركات في بعض البلاد الإسلامية، فإن العصر فيه الخير والشر، والدين حاكم موجِّه لا محكوم موجَّه، فكل الأديان جاءت لتطويع الفكر والسلوك السائدين في زمانها إلى ما تنزلت به من عقيدة صحيحة وسلوك مستقيم.

ولئن كان في دين الإسلام فروع اجتهادية، اختلفت فيها آراء الفقهاء، وثبتت صلاحية رأي منها لتجاوبه مع الظروف القائمة، فلا مانع من الأخذ به حتى لو كان مرجوحًا، أي قالت به قلة من العلماء المجتهدين، بناء على أدلة معتبرة، أما الأصول فلا يجوز تجاوزها مطلقًا في الحلال والحرام، فهي العمد الأساسية للدين، وبخاصة عند عدم الضرورة التي يباح من أجلها المحظور.

* * *

تحذير

لا يجوز التساهل أو الإسراف في هذه الرخصة، وبخاصة في تحليل الحرام لمجرد وجود الحاجة، فإن الحاجة لا ضابط يحدها، تختلف من شخص لشخص، ومن عصر لعصر، ومن بيئة لبيئة، ولم يعتبر أكثر العلماء الحاجة الملحة مبررًا لارتكاب المحظورات، وبخاصة إذا كانت المحظورات من الدرجة الأولى، وهي الكبائر التي أهلك اللَّه بها أممًا ولعنها، لتورطهم فيها، واستساغتهم لها، وتحايلهم بالمنطق الخادع على التملص من عقوبتها، بمثل قول بعض أهل الكتاب في حل أكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

والحديث المتفق عليه في أن الحلال بين والحرام بين، ذكر أن بينهما أمورًا مشتبهات، تخفى على كثير من الناس، وحذر من الاستهانة بها؛ لأنها ستجر إلى الحرام الواضح، الذي لا شبهة فيه، والنفس أمارة بالسوء، فقال: «**فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه**» وعلى هذه الشاكلة بين القرآن خطورة استخدام الآيات المتشابهة لغرض شخصي لا يخدم الدين: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٧].

ويتحايل بعض من في قلوبهم مرض، للأخذ بأحد المعنيين، اللذين يحتملهما النص القرآني، غافلًا أو متغافلًا عن النصوص الأخرى التي توضح المراد منه، بل ومضربًا عن السنة النبوية التي تبين المراد من النص المتشابه، إما رفضًا للأخذ بغير القرآن، وإما رفضًا لغير المتواتر من السنة، مع تحكيم الرأي في معنى المتواتر، وبمثل هذا الأسلوب الذي يتلاعب بالنصوص، يخشى أن يجعل المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وهنا يضرب اللَّه القوم بفتنة تدع الحليم حيران كما روي في الحديث.

ويتأكد عدم الأخذ بالمتشابه إذا كان هناك مخرج حلال ظاهر الحل، وفيه اليسر كل اليسر، فما نهى اللَّه سبحانه عن أمر إلا لحكمة، وفي الوقت نفسه، بين لهم البديل عما نهى عنه، بل وسع فيه وأكثر منه، فالأصل هو الحل ما لم يرد ما يحرم، على اختلاف الآراء في عموم ذلك، واللَّه سبحانه خلق لنا ما في الأرض جميعًا وسخرها لنا لنحقق الخلافة فيها، وما حرم من ذلك فهو قليل جدًّا، وهو لوقاية النشاط الحلال من الانحراف.

أعود فأقول: إن الإلمام بالثقافة الحاضرة من أجل الفهم الصحيح للدين، وسهولة الدعوة إليه، أمر مشروع قد يصل إلى

حد الوجوب عند الضرورة إليه، ومما يدل على مشروعيتها تنويه القرآن بشأنها كوسيلة من وسائل تعميق الإيمان بالله، وحسن استخدام نعمه، التي طلب أن نشكره عليها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

إن الاقتناع بالدين عن طريق العلم الصحيح بالوسائل المختلفة قديمها وحديثها، جعل المؤلفين القدامى في فروع العلم المختلفة، كالطب والفلك، يستشهدون بآيات من القرآن على صحة ما يقولون به، استنباطًا أو نقلًا عن غيرهم، بمعنى أنهم ربطوا بين الدين والعلم الثابت، ليحس المتعلم أن الدين ليس ثقافة غريبة، أو منهجًا لا يصلح للتطبيق في غير العصر الذي نزل فيه.

جـ - الواقع:

بعد المقارنة بين مبادئ الإسلام والمبادئ الأخرى كوسيلة من وسائل الاقتناع، يأتي الواقع شاهدًا على وجوب العودة إلى الدين، إن الواقع ينطق بأعلى صوته، أن الدين كان له أثره الواضح في إخراج الناس كافة من الظلمات إلى النور، حين

تمسك به المسلمون الأولون، عقيدة وسلوكًا، وذلك بقيام دولة في قلب الصحراء، حملت مشعل الحضارة إلى الناس في كل مكان، وعاشت زمنًا سطر فيه التاريخ على صفحاته سطورًا من نور لهذه الدولة الجديدة، التي أزالت عن عرش الصدارة أعظم دولتين في ذلك الزمان، هما دولة الفرس والرومان، وذلك في زمن وجيز، يعتبر نقطة إعجاز في التاريخ.

فالتمسك بالدين هو الذي خلق الأمة الإسلامية، وأقام دولتها العظيمة، ونهض بالعرب الذين كانوا من قبل في ضلال مبين، وضعف التدين هو الذي وضع المسلمين الآن في مؤخرة الدول، بعد أن ذاقوا الكؤوس المرة أيام الاستعمار بالذات، وما يزالون يتجرعونها إلى اليوم، كما قال الإمام مالك: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

إن التجربة الناجحة للإسلام في عهوده الزاهرة، تثبت أنه كفيل بإيجاد حياة طيبة فيها كل ألوان الكمال، والعالم المتحضر الآن ما يزال يعيش على تراث العرب والإسلام، ذلك التراث الذي أنشئوه أو هذبوه ونقلوه إلى غيرهم، فكتب الطب الإسلامي ما يزال لها شأنها في جامعات أوروبا، وكولومبس الذي اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢م قيل له: ما الذي جرأك على

القيام بهذه المغامرة؟ فقال: قراءتي لكتب ابن رشد.

إن قانون فرنسا الذي يقبس منه كثير من المسلمين اليوم، أساسه مأخوذ من فقه الإمام مالك رضي الله عنه، الذي كان منتشرًا في غربي أفريقيا والأندلس.

ويعجبني في هذا كتاب: «سجريد هونكه» الذي يؤكد من عنوانه، أن شمس العرب هي التي أنارت أوروبا، وقول كاتب فرنسي: كانت مصيبة كبرى انهزام عبد الرحمن الغافقي أمام: «شارل مارتل» في موقعة: «بواتييه» سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) فقد تأخرت بهذه الهزيمة حضارة أوروبا ثمانية قرون.

إذا كانت قراءة التاريخ تخلق الاقتناع بضرورة العودة إلى الدين، فليس ذلك قاصرًا على التاريخ الإسلامي، فالتاريخ العام يؤكد هذه الحقيقة، حيث نجى اللّه المؤمنين بالرسالات وأكرمهم، وعذب الكافرين وأهلكهم، قال تعالى في هؤلاء المكذبين: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، ودعانا إلى قراءة تاريخ السابقين والاعتبار بهم فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٠، ١١]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

والذي يساعد على غرس هذا الاقتناع من هذه الطرق، رجال متخصصون مؤمنون إيمانًا صادقًا، يبتغون بذلك وجه اللَّه، فتخصصهم يدفعهم إلى ابتكار أساليب متنوعة لخلق هذا الاقتناع، وإيمانهم الصادق يدعوهم إلى الإجادة والإتقان، ويقومون بهذه المهمة بكل وسيلة، في دور التعليم وعلى منابر الصحافة، ووسائل الإعلام المختلفة، والمتاحف ودور الآثار، والنوادي والجمعيات وغيرها.

وأنبه إلى أنه عند المقارنة بين الماضي والحاضر للاقتناع بوجوب العودة إلى الدين، لابد من الدقة والمهارة والحكمة، لبيان الظروف وتأثيرها على الأفكار والسلوك، فلا تنقل الصورة مبتورة عن ظروفها، فالظروف تتغير، وبالتالي تتغير الخطط الموضوعة.

ثالثًا: الإرادة:

الخطوة الثالثة لإبراز فكرة العمل إلى حيز الوجود، هي تحرك الإرادة للتنفيذ، ويجب أن نعلم أن التحرك لا يكون إلا

بقوة تتغلب على المقاومة، والقوة هنا هي الاقتناع، ولكن هل يكفي الاقتناع لتحريك الإرادة؟ لا، لابد من الاطمئنان إلى عدم وجود مقاومة أو ضعفها على الأقل، حتى لا تحول دون التنفيذ، وهذا ما يعبر عنه المفكرون بوجود المقتضى وعدم المانع، فإذا لم يتم العمل أو لم يشرع فيه دل ذلك على خلل في أحد هذين العاملين، بألا يوجد المقتضى أصلاً، أو يوجد ولكنه ضعيف لا يكفي للحركة، أو بأن يوجد مانع قوي يعوق الإرادة عن التنفيذ.

* * *

المقتضى

وإذا لم يوجد المقتضى أو وجد وكان ضعيفًا، فالعلاج هو إيجاد أو تقوية الاقتناع في النفس بالوسيلة التي تقدمت، إن مشركي مكة عاقهم عن الإيمان برسالة النبي ﷺ جملة عوائق: منها جهلهم بضرر الشرك، وعدم اقتناعهم بالأدلة على توحيد اللّٰه سبحانه، ومن أجل خلق الاقتناع وإضعاف المانع، جاءت آيات القرآن في مكة مركزة على إيراد الأدلة الكونية والنفسية على ذلك، في الوقت الذي كذبوا فيه دعوى الرسالة ونزول الوحي على بشر مثلهم، أو من طبقة ليست أهلًا لهذا الشرف: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

* * *

المانع

إن الموانع التي تحول دون العودة إلى الدين كثيرة، وهي إما موانع ذاتية نابعة من الإنسان نفسه، لوقوعه تحت تأثير الهوى والشيطان، وإما موانع خارجية، قد تكون مادية كعدم الإمكانات، وقد تكون معنوية كالتقليد المتحكم، والعرف الجاري، والاستعمار المتسلط، وهنا يحتاج الأمر إلى جهاد عنيف ضد هذه الموانع.

فجهاد الموانع الذاتية، المتمثلة في النفس المتسلطة بغرائزها وأهوائها، ومساعدة الشيطان، يكون بأخذها بتعاليم الدين لمقاومة إغرائها، إما بالكبت إن كان يفيد وكانت عواقبه مأمونة، وإما بتعديل مسارها، أو باستبدال نشاط خيري مثمر بنشاطها الضار، على ما يقوله علماء النفس في هذا المجال، وهو جهاد شاق لكن نتيجته طيبة إلى أبعد الحدود، فالإنسان الصالح الحر كله خير وبركة، في أي ميدان يزاول فيه نشاطه، وفي هذا المعنى جاء قول مأثور: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك» وجاء أيضًا: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس»[1]، والكبر في رأيي إن صدق الحديث هو كبر الجهد،

---

(١) رواه البيهقي بسند ضعيف.

وليس كبر الأجر والثواب، ومن أسلحة النفس في المقاومة الحسد، كاليهود الذين كانوا ينتظرون ظهور نبي يصلح لهم شأنهم، فلما جاء الرسول محمد ﷺ لم يستجيبوا له، على الرغم من أنهم يعرفونه، كما يعرفون أبناءهم بالعلامات المميزة له، والمذكورة في كتبهم، ذلك لأنه عربي، وكانوا يريدونه من بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

وكذلك حسد بعض أهل مكة أن يكون نبي من غير قبيلتهم تمتاز به عنهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] قال المفسرون في سبب نزول هذه الآية: إن أبا جهل قال: تنافسنا نحن وبنو هاشم، فلما تحاذينا على الركب قالوا منا نبي، والله لا نؤمن حتى يكون منا نبي مثلهم فنزلت.

وجهاد الشيطان المتسلط على النفس، يكون بالتوعية بعدم الاستسلام لإغوائه ووسوسته، وإذا جوهدت النفس أولا، حرم هو من حليف قوي، ونصير لا يعدله نصير على ما قال رب

العزة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] وعداوة الشيطان معروفة بالنص عليها في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وأقل ما يحارب به عند بدء هجومه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإذا استطاع الإنسان أن يروض نفسه، ويتيقظ لوسوسة الشيطان، سهل عليه الجهاد في الميادين الأخرى، التي تكون عوائقها خارجة عن إرادته، ويستعان على هذا الجهاد بالتربية الدينية، التي أفاض في الحديث عنها علماء الأخلاق والتصوف الصحيح.

وجهاد الموانع غير الذاتية إن كانت مادية، يكون بالعمل الجاد المنتج، ولي في ذلك رسالة خاصة بعنوان: «الإسلام دين العمل» وإن كانت معنوية كالتقاليد ومجاراة العرف يكون بالتوعية بخطرها، كما قال تعالى في تكذيب الناس للرسل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣ ، ٢٤].

وأهل مكة كانوا كذلك، فعلى الرغم من إقرارهم واعترافهم بأن محمدًا صادق أمين، وأن القرآن معجز يدل على صدق رسالته، لم يؤمنوا متأثرين بالقديم، لقد قال قائلهم عند سماع القرآن من الرسول حين أوفدوه ليفاوضه على التخلي عن دعوته: إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر. ومع ذلك لم يؤمن؛ لأن قومه حملوا عليه خوف أن يؤمن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

والتوعية بخطورة التقليد، تكون عل أساس من الترغيب والترهيب، بالحكمة والموعظة الحسنة، وأغلب الدول الإسلامية المتخلفة تعرف الصواب، وتقتنع بوجوب التغيير بالعودة إلى الدين، لكن أغلبها تحكم بدساتير وقوانين تعودت عليها، كجزء أساسي من حياتها، يصعب انتزاعهم منها، وبعض الشعوب تشرب الخمر دون مؤاخذة من أكثر من يعيشون معهم، أو إحساس بحرمتها لسبب أو لآخر، ونساؤها سافرات، تمارس

أعمالًا لا يوافق عليها الدين بحكم كفالة القانون للحريات وبعضها يتعامل بالربا لعدم تحريم القانون له، وصارت هذه الأمور تقليدًا أو عرفًا جاريًا لطول عهدهم بها، والمتعرض لتغيير ذلك يتهم بالتعدي على الحريات والخروج على النظام، وقد تصعد التهمة فتصير خيانة للوطن، وشروعًا في انقلاب، والعقوبة على ذلك شديدة، قد تصل إلى الإعدام، ومع ذلك لا يجوز أن يرضى أحد بالسكوت على المنكر، إلى الحد الذي يستمرئه الناس، فيعدونه غير منكر، ويعبرون باللغة العامية عن هذه المقولة: «هل عملنا شيئًا غلطا؟».

* * *

خطر الاستعمار

وإذا كان المانع لإرادة التغيير، أو اتخاذ الاجراءات له، هو الاستعمار وبطش المستبدين، فلابد من العمل للتحرر من الاستعمار والتحكم بكل وسيلة ممكنة، ذلك أن الذين لم يتحرروا من تحكم الغير، لا يملكون إصدار قرار العودة إلى الدين بأنفسهم، مع العلم بأن الاستعمار قد يكون مكشوفًا ظاهرًا، وقد يكون مستترًا خفيًا، فالمتحكم قوي ويقظ، يحاول الضغط على البقرة الحلوب لتدر له كل ما فيها من خير، ويقيدها بأقوى القيود، حتى لا تفر منه إلى غيره، ويقيم الجدران والمتاريس ويبني القلاع والحصون، حتى لا يسرقها منه من هو أقوى منه، ويبث الجواسيس، ويرصد الحركات بين المستضعفين، ليطمئن على الجبهة الداخلية، خشية أن يكون فيها من يمهد للتخلص من ربقة المستعمر، وليضمن احتكار السوق ليروج فيها سلعته. . .

وقد يكون من الطريف أن أنقل هذه الصورة الواقعية لحال مصر بسبب الاستعمار، فيقول شاعر النيل حافظ إبراهيم:

عزت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبًا جساما
وغدا القوت في يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما

ويخال الرغيف في البعد بدرا   ويظن اللحوم صيدًا حراما
وبنو مصر في حمى النيل صرعى   يرقبون القضاء عاما فعاما
أيها النيل كيف نمشي عطاشا   في بلاد رويت فيها الأناما
يرد الواغل الغريب فيروى   وبنوك الكرام تشكو الأواما
قد شقينا ونحن كرمنا اللَّـ   ـه بعصر يكرم الأنعاما

ومن هنا كانت العودة إلى الدين، يلزمها رفع هذا العائق الخطير، والتحرر من النفوذ السياسي، والعسكري والثقافي، على أن يكون التحرر تحررًا كاملًا من كل نفوذ، وليس تحررًا من نفوذ للوقوع تحت نفوذ آخر، بل أن تكون لنا شخصية مستقلة متميزة بالإيديولوجيات الإسلامية، فكرًا وسلوكًا، والحذر ثم الحذر من التورط والانحياز إلى أي سلطان أجنبي، تحت تأثير مغريات أو تهديدات نعيش معها بأسلوب النفاق، أو زيف الدبلوماسية المقنعة، كالذي يعبد اللَّه على حرف، إن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، واللَّه سبحانه يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ويقول: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

وقد قامت حركات في العالم الإسلامي تنادي بالعودة إلى الدين، ولكن خمدت أنفاسها بقوة المستعمر، بطريق مباشر أو غير مباشر؛ لأنه يعلم أن الدين لا يرضى بالاستعباد والذل والهوان، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

إن الدعوة إلى العودة للدين في هذا الجو تحتاج إلى حكمة كبيرة، كما قال الله لرسوله ﷺ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهي ليست تعليمًا يقتصر على حشو الأذهان بالمعلومات فقط، بل هي تربية تأخذ الناس على طريق الخير، وتبعد بهم عن طريق الشر، والتربية تغيير للسلوك، ونتيجته تغيير الوضع العام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: ١١] ومقومات التربية: تعليم وتطبيق ومراقبة وجزاء، وتفصيل ذلك يطول، ويمكن الرجوع إليه في موسوعة: «الأسرة تحت رعاية الإسلام» في الجزء الرابع الخاص بتربية الأولاد.

وبحكم عملي واعظًا في جهاز حكومي، أي في السلطة

التنفيذية، مارست الدعوة في القاعدة العريضة، وهي الشعب بكل تشكيلاته ومستوياته، وبحكم اشتراكي في السلطة التشريعية عضوًا منتخبًا في مجلس الشعب سنة ١٩٨٤م، ومعينًا في مجلس الشورى سنة ١٩٨٩م، وما قمت به من فض المنازعات، والاشتراك في مجالس الصلح بين الأفراد والأسر، في قطاعات كثيرة، بما يشبه عمل السلطة القضائية، الحارسة للعدالة، المنزهة عن الأغراض، أضع خبرتي في هذا المجال، وأبدأ بالجزء الأول من الدولة، وهو الشعب فأقول وبالله التوفيق.

إصلاح الشعب:

الشعب بكل أفراده وجماعاته مطلوب منه أن يطبق الدين تطبيقًا كاملًا، أي في العقائد والعبادات، والمعاملات والأخلاق، وفي سائر المجالات، لا ينتظر أن يتلقى الأوامر من أحد، فالله سبحانه وتعالى هو الذي أمر، ويستوي في ذلك وجود جهة، أو سلطة أخرى تؤكد هذا الأمر، وتراقب تنفيذه، وتجازي عليه، وعدم وجودها، فالآمر والرقيب والمجازي موجود دائمًا في عقل المؤمن ووجدانه، ويعبر عن ذلك أحيانًا بالضمير، وهي كلمة شاع استعمالها بعد الثورة الغربية على

الدين، وتحكم رجاله في الدولة.

ومهما يكن من شيء فإن الضمير الحي المستنير، هو نتيجة التربية الدينية السليمة، أما الضمير المتربى على مائدة العقل والمصالح فهو مربوط بهما، وهما في تغير من الشخص نفسه، ومن الجو الذي يعيش فيه، والمؤثرات التي تحيط به، فالاستعمار والتفرقة العنصرية، وبسط النفوذ، وسباق التسلح، كل ذلك من وحي الضمائر البعيدة عن تربية الدين.

وممارسة الدين ممارسة صحيحة، تتبلور في كلمة التقوى القائمة على امتثال الأوامر، واجتناب النواهي كما سبق توضيحه، والذي يُتَّقَى هو اللّه سبحانه، الذي خلق وأنعم، وأمر ونهى، وتابع وأحصى، وقرر المساءلة والجزاء: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة: ٧] إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة، في القرآن والسنة، تضمنها كتابنا: «منارات على الطريق».

وأبادر فأقول: إن إحصاء كل ما يصدر عن الإنسان له وسيلته التي لا يعلم حقيقتها إلا اللَّه، وقد يكون مما يعبر عنه في النصوص، من كتابة وسمع وبصر تقريبًا للأذهان، عن الأسلوب الحقيقي، الذي يسجل به اللَّه سبحانه، وما يدونه الملائكة كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

* * *

تصوير فني

ومن التعبيرات الحديثة المألوفة لتقريب معنى الإحصاء، والتسجيل، أن يقال: هناك «كاميرات» تلفزيونية خفية، مسلطة على الإنسان من كل جانب، تسجل بالصوت والصورة كل ما يقع منه، أفلامها حساسة إلى أبعد حد، وأشعتها نفاذة إلى أقصى مدى، تسجل خلجات القلوب وما تكنه الصدور: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] والذين يسجلون بها على أعلى مستوى من الفنية ومن الأمانة أيضًا: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

إن هذه الأفلام المسجلة «الكتب» توضع - كما يقول العلماء - في خزانة تحت العرش لحفظها وصيانتها، فإذا حشر الناس يوم القيامة للحساب، هبت ريح تثيرها، ويعرف كل تسجيل صاحبه، فيعلق بعنقه، وتناوله الملائكة إياه بيمينه أو شماله، ثم يعرض عرضًا أمينًا يقرؤه صاحبه، حتى لو كان أميًّا، لا يقرأ ولا

يكتب، فيرى بنفسه صورة حياته كاملة من يوم أن كلف أو باشر التقوى، لا يخالجه شك أو ريبة في إضافة شيء لم يصدر عنه، أو حذف شيء يحرص على تسجيله، ولعل هذا التصوير الفني يقرب إلى الأذهان فهم قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

والذي عنده هذا الإيمان يلزمه أمران، الأول عدم التقصير، والثاني الاجتهاد في الطاعة، فهو لا يعصي اللَّه، وفي الوقت نفسه يزداد إقبالا على الطاعة، ومن مظاهر أو لوازم هذين الأمرين، إتقان العمل واستغلال كل فرصة للإفادة منها، فهو يعيش حياته عاملاً مجدًا مستقيمًا، والنتيجة الحتمية لذلك هي الرخاء الشامل، والسعادة الغامرة، في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والمفروض أن يكون الذي عنده هذه العقيدة مثاليًا، أو أقرب إلى المثالية في سلوكه، لكن الإنسان بشر يخطئ ويصيب، فتلك طبيعته التي سوى اللَّه عليها آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ

﴿إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، ومن هنا كان الناس درجات في السلوك، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢].

وبالتالي تكون نتيجة السلوك متفاوتة، فكلما كان الفرد أو المجتمع متمسكًا بدينه أقوى تمسك، كانت الحياة متناسبة مع هذه الدرجة من التقوى، تمامًا كالذي يعنى بغذائه كمًا وكيفًا، تكون قوته وقدرته على ممارسة نشاطه، مع ملاحظة الاعتبارات الأخرى في التغذية والسلوك، كما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩] وقوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ [هود: ٣].

ومن رحمة اللَّه تعالى - وهو الذي خلق الإنسان على هذا النحو - أنه لم يجعله آليًا يتحرك في حياته كلها حركة اضطرارية، قد تسوقه إلى الهاوية دون اختيار، أو قد تسوقه إلى الخير دون تعثر، بل جعله حرًا مختارًا، ميزه بالعقل، وساعده بالوحي، إلى جانب الغرائز التي هي أساس السلوك الحيواني في الدنيا.

ومع تحذيره من إرادة الشر وعمله، فتح له باب العودة إلى

الاستقامة إن غلبته شهواته، وآيات الترغيب في التوبة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، والنبي ﷺ وضح هذه الحقيقة فقال: **«كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»**[1].

وفي ظل هذه المعاني يمكن أن يقال: إن الإنسان أمير نفسه بإرادة اللّه تعالى، وبما كرمه به من العقل، وما زوده به من الوحي، فهو الذي يستطيع أن يصنع حياته بنفسه في ضوء ذلك، إن أراد لها الخير آمن واتقى، وإن أراد لها الشر كفر أو عصى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧] ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وبهذا لا داعي للسؤال: هل الإنسان مسير أو مخير؟ فأنت مسير بقوانين اللّه الغالبة، وفي إطارها أو دائرتها أنت مخير بحريتك وإرادتك.

* * *

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه.

رقابة الضمير

والسلوك في ضوء ما تقدم، من الإيمان باللَّه الحق، ومراقبته في العمل، لا يحتاج معه المؤمن بصدق إلى مصدر آخر يأمره، ولا إلى رقابة أخرى تتابعه وتؤاخذه - كما سبق ذكره -، وكل قوة دون قوة الإيمان والمراقبة للَّه، يمكن التحايل عليها عند غفلتها، ويمكن استمالتها بأي نوع من أنواع الإغراء، ترغيبًا أو ترهيبًا، وهنا يكون الفساد والفوضى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨] ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٧ - ١٠٩].

ومن أروع الأمثلة على رقابة اللّه، أو رقابة الضمير بالتعبير الحديث، حكاية العبد الراعي، مع عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما، في أمانته وعدم الاستجابة للإغراءات، ورفضه لكل باطل ينجيه من المسئولية، فقد روى الطبراني والبيهقي في الشعب عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه خرج في بعض نواحي المدينة ومعه أصحابه، فوضعوا السفرة - الطعام - فمر بهم راعي غنم فسلم، فقال له ابن عمر : هلم يا راعي فكل معنا، فقال: إني صائم، فقال له ابن عمر رضي الله عنهما : أتصوم في هذا اليوم الشديد الحر وأنت في هذه الجبال ترعى هذه الغنم؟ فقال له: إني واللّه أبادر أيامي هذه الخالية، فقال له ابن عمر - يريد أن يختبر ورعه - هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك فنعطيك ثمنها ونطعمك من لحمها فتفطر عليه؟ فقال له: إنها ليست لي، إنها غنم سيدي. فقال له ابن عمر: وما عسى سيدك فاعلًا إذا فقدها وقلت: أكلها الذئب؟ فولى الراعي عنه وهو يقول: فأين اللّه؟ يرفع صوته ويكررها ويشير بإصبعه إلى السماء، فجعل ابن عمر يردد قول الراعي ذلك، فلما قدم المدينة اشترى العبد الراعي والغنم، وأعتقه ووهب له الأغنام[1].

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري - الغنم.

هذا هو الضمير الحي، والمراقبة الصحيحة للَّه، التي كانت الفقرة الثانية في برنامج لقمان لتربية ولده بعد نهيه عن الشرك باللَّه - وبينهما وصية اللَّه بالوالدين - ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦].

لو توافرت هذه القيمة الأخلاقية عند المؤمنين، ما كان هناك انحراف في أي موقع من المواقع، وما كانت هناك حاجة إلى الرقابة البشرية، بكل اختصاصاتها ومراتبها، والعاملين بها، فمن الممكن الإفلات منها، والتحايل عليها، والحوادث في ذلك كثيرة ومشهورة، فالبيانات تصحح، والخانات تسدد، والتوقيعات والشهادات تزور، والقضاء بالتالي يضلل - بفتح اللام - واللَّه بكل شيء محيط علما .

* * *

الروح الجماعية

الإنسان في ظل هذه العقيدة مستقيم السلوك في نفسه وفي الوقت نفسه يشعر بأنه عضو في مجتمع إنساني عام وفي مجتمع إسلامي خاص، وفي مجتمع عائلي أخص، وهنا لابد من مراعاة قول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1]، والأخلاق الاجتماعية كثيرة، والدين بينها وركز على أمهاتها، التي يجمعها عمل الخير للناس، ومنع الضرر عنهم، يقول النبي ﷺ: «**على كل مسلم صدقة**» قال: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «**يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق**» قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**» قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر**» قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: «**يمسك عن الشر، فإنها صدقة**»[2]، ويقول: «**اتق اللّٰه حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[3]، ويقول: «**أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون**»[4]،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري.

(٣) رواه الترمذي

(٤) رواه الطبراني .

ويقول: «**أحب الناس أنفعهم للناس**»[1].

ومن حيث التطبيق العملي، يؤثر عن السلف أن الهدية كانت تأتي أحدهم فيأمر بإرسالها إلى أحد إخوانه لأنه أحوج إليها، فيرسلها هذا بالتالي إلى غيره لهذا المعنى، حتى تتداول بين سبعة أو أكثر، ثم تعود إلى الأول، كل يرى أن أخاه أولى بها منه.

ولا ينسى التاريخ أبدًا عزل خالد بن الوليد، عن قيادة الجيش في الشام، فلما وصل كتاب أمير المؤمنين بتولية أبي عبيدة بدله، خشي الفتنة والفرقة والمعركة قائمة، فاستمر كاتمًا لسر الرسالة، وظل قائدًا حتى انتهت المعركة بالنصر، ثم سلمها إلى أبي عبيدة وارتضى أن يعيش جنديًا تحت قيادته وإمارته، محافظة على وحدة الصف، وتفانيًا في خدمة الصالح العام.

كما لا ينسى التاريخ أيضًا ما حدث بعد انتهاء المعركة وتفقد الجرحى لإسعافهم، والعطاش لريهم، إن الكأس التي رفعها أحدهم إلى فمه وهو في آخر رمق، يأمر بإرسالها إلى جريح آخر سمع أنينه، لعله يكون أحوج إليها منه، فيرسلها الثاني إلى الثالث، فوصلته وقد فارق الحياة، وعاد بها حاملها إلى الثاني

---

(١) رواه الأصبهاني.

فإذا به ميت وكذلك إلى الأول فإذا به ميت، كل يؤثر أخاه على نفسه وهو في أشد حالات الاحتياج.

تلك هي أخلاق النبل التي غرسها الإسلام فيهم، والتي نحن في أمس الحاجة إليها لتعود لنا القوة التي كانت لهم، بدل أن نكتفي بترديد الشعارات، والقناعة من الدين بأمور لا يفيد منها إلا صاحبها، لا تكلف جهدًا بدنيا ولا ماليًا، ولا تعرض حياة لخطر يحقق به المجد للإسلام، وتكون به الأمة كما قال اللّه خير أمة أخرجت للناس.

* * *

إصلاح الإنسان

إن إصلاح الإنسان هو الركيزة الأولى لكل إصلاح على المستوى الشعبي والحكومي، فمن الشعب تكون السلطة، والفرد هو الذي يشرع ويقنن، وهو الذي يحكم وينفذ، وهو الذي يقضي ويفصل، وهو الذي يدعو وينشر، وعلى رأسه تقوم كل الإنجازات، والشكاوى التي يعج بها المجتمع شعبًا وحكومة هي من انحراف الإنسان عن القصد، فهو - في التمثيل والتشبيه - كالآلة التي تفرز القطن وتغزله وتنسجه، تلقى فيها الخامة وتؤدي واجبها فيها، فإن كانت صالحة أنتجت صالحًا، وإلا فلا، وقل مثل ذلك في آلات الطحن والحياكة وكل الآلات، إن كانت أجزاؤها كاملة ومادتها قوية، أي صالحة كما وكيفًا، أدت واجبها بكفاءة، وإن نقص بعض أجزائها أو كانت مادتها مغشوشة، فسدت وعقمت عن الانتاج المطلوب.

فلابد من بناء الإنسان بناء جيدًا في ظاهره وباطنه، وهدى اللَّه غطى هذه الناحية، بما لا يستطيع أي منهج أن يغطيها، صنع اللَّه الذي أتقن كل شيء، والذي يتولى بناء الإنسان ويسهم في ذلك بنصيب أكبر هو البيت والمدرسة، وكل مؤسسات التربية، ومنابع الثقافة، وتفصيل ذلك في كتابنا الذي أشرنا إليه من قبل.

إصلاح السلطة

الإصلاح في القطاع الحكومي موضوع واسع، والتفصيل فيه طويل استوفته كتب خاصة، إلى جانب الكتب العامة، مثل: الأحكام السلطانية للماوردي، ومثله لأبي يعلى الفراء الحنبلي، والسياسة الشرعية لابن تيمية، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فأقول باختصار: إن الدولة فيها - بالتقسيم الحديث - ثلاث سلطات هي: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية، وزيدت عليها أخيرًا في بعض الدول سلطة الصحافة، وكذلك وسائل الإعلام الأخرى.

وعلى رأس هؤلاء جميعًا، حاكم عام يعرف باسم الملك، أو السلطان، أو الامبراطور، أو الخليفة، أو الأمير، أو الإمام، أو الرئيس...

١ - الحاكم العام:

هذا الحاكم العام قد يكون مختارًا من الشعب بطريقة أو بأخرى، وقد يكون معينًا ممن سبقه، أو من جهة أخرى، وقد يكون متسلطًا غالبًا قاهرًا، والمواصفات التي ذكرها العلماء فيه هي كما قال الماوردي[1] العدالة، والعلم، وسلامة الحواس،

(١) الأحكام السلطانية ص: ٦ .

وسلامة الأعضاء، والرأي، والشجاعة، والنجدة، وواجباته، كما يقول أيضًا، هي:

١- حفظ الدين - الدستور - من التبديل فيه، والحث على العمل به.

٢- حراسة البيضة والذب عن الأمة من عدو في الدين أو باغ على نفس أو مال.

٣- عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها.

٤- تقدير ما يتولاه من الأموال بسنة الدين من غير تحريف في أخذها وإعطائها.

٥- معاناة المظالم والأحكام، بالتسوية بين أهلها، واعتماد النصفة في فصلها.

٦- إقامة الحدود على مستحقيها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها.

٧- اختيار خلفاء عنه في الأمور، يكونون من أهل الكفاية فيها والأمانة عليها.

ومسئوليته أخطر المسئوليات، كما يؤخذ - مع الواقع - من ترتيبها في الحديث: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها،**

والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته»[1]، وفي هذا يقول ﷺ أيضًا: «**السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم، فإن عدل كان له الأجر، وعلى الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر، وعلى الرعية الصبر»**[2].

رحم الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ضرب المثل الأعلى في الإحساس بمسئولية الحاكم، اقتداء بالنبي ﷺ الذي قال فيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] - حيث كان يتجول في المدينة ليلًا ليتعرف أحوال الرعية، وحكايته مشهورة مع المرأة الفقيرة، التي حمل إليها الطعام، وهيأه لها حتى رضيت عنه، بعد أن كانت ساخطة عليه، وهو القائل: لو علمت أن راعي غنم بحضرموت له حق عندي لحملته إليه حتى يأخذه، والقائل: لو عثرت دابة بشط العراق لوجدتني مسئولًا عنها لم لم أمهد لها الطريق، والذي

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه ابن ماجه والبزار والبيهقي.

وجد بعيرًا من إبل الصدقة به علة فتولى مداواتها بنفسه، ولما قيل له: كان عبدك يكفيك هذا قال: إذا جئت يوم القيامة هل يسأل اللَّه عنه عمر، أم عبد عمر؟ إنه هو الذي استوقفته عجوز في الطريق، فاستمع إليها، وهي تنصحه بالتواضع والرحمة والعدل، والإحساس بالمسئولية أمام اللَّه، ولما سئل عن وقوفه معها قال: إنها خولة بنت ثعلبة، التي اشتكت زوجها إلى اللَّه عند رسول اللَّه ﷺ فاستجاب اللَّه لها - كما جاء في أول سورة المجادلة عن حكم الظهار - وقال عمر: أيسمع اللَّه كلامها من فوق سبع سموات، ولا يسمع كلامها عمر؟.

إنها مجموعة قيم في عمر وغيره، من حكام السلف الصالح، نابعة من إحساسهم بخطورة مهمتهم، وعظم مسئوليتهم، إنهم بشر ليسوا آلهة لا يسألون عما يفعلون كما أنهم ليسوا ملائكة معصومين، فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، وإيمانهم بالرجوع إلى اللَّه، وحسابهم على كل صغيرة وكبيرة في أداء مهمتهم، يعطيهم دفعة قوية للسهر على مصالح الأمة وحسن اختيار من يعملون معه، لإبراء الذمة أولًا، ولحسن الأحدوثة في التاريخ ثانيًا، فالذكر للإنسان عمر ثان كما يقول الحكماء، وكما طلب ذلك من رب العزة سبحانه، سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

الحاشية

والحاكم الذي يريد اللَّه له الخير يوفقه في اختيار حكومته، فهي عينه التي يرى بها، وأذنه التي يسمع بها، إنها حاشية وبطانة له، إلى جانب ما يتخذه من حاشية وبطانة بأسماء مختلفة، كمستشارين ومساعدين.

وقد جاء في الحديث: «**ما بعث اللَّه من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصم اللَّه**»[١]، وفي حديث آخر: «**إذا أراد اللَّه بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه**»[٢].

* * *

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أبو داود بإسناد جيد.

واجب الرعية

وعلى الرعية - مع الطاعة في المعروف - تقديم النصح له حتى لو لم يطلبه منها، وذلك عن طريق القنوات الشرعية - بالتعبير الحديث - والمهم أن يكون بالحكمة التي ذكرت في غير هذا الكتاب، جاء في الأثر أن عمر رضي الله عنه كان يخطب فقال له رجل من عامة الناس: اتق اللّه، فأنكر عليه رجل ذلك، فقال له عمر: دعه فليقلها، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها، وقد قال الخليفة الراشد: إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوموني، وحادثة عمر في النهي عن المغالاة في المهور، واعتراض امرأة عليه معروفة، فقد كان وقافًا عند كتاب اللّه، والرجوع إلى الحق فضيلة.

وموقف الشعب من ولي الأمر إذا فسق بسلوكه، أو جار أو ظلم، مذكور بالتفصيل في الجزء الأول من كتاب: «بيان للناس من الأزهر الشريف» وقد سبقت الإشارة إليه، والشعب إذا لم يرض عن السلطة الحاكمة يجب أن يراعي الدساتير الموضوعة، حتى لا يكون الخروج عليها مفضيًا إلى أضرار غير محتملة، ونواب الشعب يقع على عاتقهم جزء كبير من المسئولية في هذا

المجال، ومن هنا تتضح خطورة اختيارهم وممارستهم لمهمتهم.

٢- السلطة التشريعية:

ليكن معلومًا أن اللّه سبحانه وتعالى هو خالقنا، وهو المشرع الحقيقي لنا بالوحي، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولئلا تكون لهم عليه حجة، لكن لابد في الأرض من خليفة يستقبل هذا التشريع الموحى به، ويبلغه ويحكم به، وحيث إن الخليفة الذي تلقى الوحي أجله محدود، لابد أن يتولى الأمر بعده ورثة هذا التشريع. قال تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

والرسول محمد ﷺ في حياته، كان متلقيًا للتشريع من اللّه، ومشرعًا في الوقت نفسه بتفويض من اللّه سبحانه، حيث قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وكان منفذًا وكان قاضيًا. ثم دخل النظام إلى الحكم الإسلامي ووزعت الاختصاصات وتطورت الأمور، حتى وصلت في عصرنا الحديث إلى ما نراه اليوم.

* * *

الاجتهاد

وإلى جانب النصوص التشريعية الواردة في القرآن والسنة، بخصوص الدستور والقوانين، هناك أمران: أولهما احتياج بعض النصوص إلى توضيح، يقوم به من لهم أهلية الاجتهاد بالمواصفات المعروفة، وثانيهما عدم وجود نص لشيء معين، وذلك في قطاعين: قطاع ديني يحتاج فيه إلى القياس، وقطاع دنيوي يستقل فيه الناس بتقرير ما يناسبهم في نطاق المصلحة، التي لا تصادم أصلًا مقررًا من أصول الدين، وإن كان الفصل صعبًا بين أمور الدنيا والدين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] وقال ﷺ: «**أنتم أعلم بشئون دنياكم**»[١].

والتشريع في ظل النظم الحديثة، تقوم به في بعض البلاد الإسلامية مجالس، كمظهر من مظاهر الحكم الديمقراطي،

---

(١) رواه مسلم.

والأصل في هذه المجالس - في بلاد المسلمين - ألا تنظر فيما جاء به النص واضحًا، وعلم من الدين بالضرورة، وألا تشرع أمرًا يخالف ذلك، وأن يكون جل بحثها في الأمور الدنيوية التي تختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان، هذا هو الأصل، وإن كان بعض المجالس تحاول أن تشرع في الأمور الدينية ؛ لأن الدستور يخول لها ذلك، وبخاصة إذا لم ينص فيه على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام وعلى أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع.

وإعمالًا للنص المذكور في بعض الدساتير، يجب أن تغير كل القوانين المخالفة للشريعة، وأن يجمع ممثلو الشعب على ذلك، وفي مصر بالذات، قام كثير من النواب في دورات مختلفة بالمطالبة بتنقية القوانين القائمة مما يخالف الشريعة، إن تعذر تغييرها تغييرًا جذريًا بصياغة جديدة فنية فقهية، تحافظ على التراث، وتبسط بأسلوب العصر، وتنظم بمواصفاته، وذلك إعمالًا للدستور، وفي إحدى الدورات نودي بذلك، وللتاريخ أذكر نص الكلمة التي أعددتها بهذه المناسبة، وألقيت ملخصها بمجلس الشعب، في جلسة يوم السبت ١٤ من شعبان سنة ١٤٠٥هـ، الموافق ٤ من مايو سنة ١٩٨٥م، وهي:

الكلمة التي ألقي ملخصها في مجلس الشعب
يوم السبت ٤ من مايو ١٩٨٥
بخصوص تطبيق الشريعة الإسلامية

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم، الحمد للّٰه، والصلاة والسلام على سيدنا رسول اللّٰه، أما بعد: فأحمد اللّٰه الذي أتاح لي الفرصة لأتحدث من أوسع قناة شرعية رسمية، في موضوع هو أهم الموضوعات بالنسبة إلى العالم عامة، وبالنسبة لمصر خاصة، ذلكم هو موضوع استكمال تطبيق الشريعة الإسلامية، وقد اخترت تعبير «استكمال» إنصافًا للحقيقة، حيث لا ينبغي في الحكم على الشيء التركيز على السلبيات عند القدح، ولا على الإيجابيات عند المدح، فالشريعة بمعناها الواسع تشمل العقائد والعبادات، والأخلاق والمعاملات، وجميع النظم الأسرية والدستورية، والقضائية والدولية وغيرها.

ومصر - بحمد اللّٰه - تمارس جزءًا كبيرًا من الشريعة على وجه استحقت به أن تكون قبلة العالم الإسلامي، فشعبها أحسن الشعوب فهما للدين، وسلامة في العقيدة، واحترامًا للعبادة، وتقديرًا للأخلاق، وتجاوبًا مع التطور المتزن، في الحضارة والعمران، والمطلوب هو استكمال التطبيق في أمور، وإن كان حجمها صغيرًا، فإن أثرها كبير والتطلع إلى الكمال سمة الأخيار، والمؤمن القوي

خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، والمؤمن لا يشبع من خير حتى يكون منتهاه الجنة كما جاءت بذلك الأحاديث النبوية(١).

إن كلمتي في نقطتين: أولاهما في المطالبة باستكمال التطبيق، والثانية في أهمية التطبيق، أما الأولى فالحديث عنها من منطلقات أربعة: منطلق ديني، ومنطلق تاريخي، ومنطلق شعبي، ومنطلق دستوري، وبيان ذلك باختصار.

١ - أما المنطلق الديني، فنحن كأمة مسلمة نعيش في بلد دينه الرسمي هو الإسلام، يأمرنا الدين بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا شك أن كمال التطبيق للشريعة خير ومعروف، والتقصير فيه منكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وعندما أصدر الله سبحانه **قراره الحكيم** بخيرية هذه الأمة، كان من أولى الحيثيات، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقال:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وجعل من الصفات المميزة لها، ولاية بعضهم لبعض، في التناصح، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] وقال: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(١) سبق تخريجها.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

ومن صور هذه الولاية التشاور فيما لم يرد فيه نص قاطع، قال تعالى في صفات المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] والتشاور كما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض، يكون بين القاعدة والقمة، بين الراعي والرعية، قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وكان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس مشاورة لأصحابه، والشواهد على ذلك كثيرة، في الحرب والسلم على السواء، وعلى المستوى الخاص والعام، وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «**الدين النصيحة، لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**»(١)، على بعض ما فسرت به النصيحة في هذا الحديث.

ولم يكتف الإسلام بمدح التناصح، بل صرح بالأمر به في نصوص كثيرة، وقال النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٢)، ولم يكتف الإسلام أيضًا بالأمر الصريح بالتناصح، بل أكده بالنهي عن التقصير فيه، حتى لا نكون ممن لعنهم الله بقوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، وفي الحديث: «**إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا**

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.

ظالم فقد تودع منهم»[1]، وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**»[2]. وقال أبو علي الدقاق، كما في رسالة القشيري: الساكت عن الحق شيطان أخرس.

٢- أما المنطلق التاريخي فبيانه، أن مصر كانت إلى ما قبل احتلال الغرب لها، تحكم بالشريعة الإسلامية، وإن لم يكن دستور مدون على النظام الحديث، فدستورها القرآن والسنة، ولم تكن هناك مجالس تشريعية لعدم الحاجة إليها، حيث سد فراغها الجامع الأزهر الشريف، بما اضطلع به من أعباء عشرة قرون، من تعليم لهذا الدستور وشرح لقوانينه، بل ورقابة على تنفيذه، إلى أن حكمت مصر بالقانون الوضعي الغريب، الذي عارضه الغيورون على دينهم ووطنهم، وقامت محاولة لتقنين الشريعة على نظام حديث بمعرفة «قدري باشا» في كتابه: «مرشد الحيران» الذي حال دون الأخذ به عقبات وعقبات.

وفي العشرينات من هذا القرن، علت صيحة العودة إلى التشريع الإسلامي، بجعل القرآن دستورًا للأمة، وأخيرًا قامت صحوة

(١) رواه الحاكم وصححه.
(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

بوجوب تطبيق ما تضمنه الدستور الوضعي في مادته الثانية، والاقتراح المقدم إلى المجلس اليوم، هو حلقة من حلقات هذه السلسلة التاريخية، للمناداة بتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقًا كاملًا.

٣- أما المنطق الشعبي، فيتلخص في أن المعركة الانتخابية الأخيرة، شهدت نشاطًا كبيرًا في الدعوة، وكثرت الشعارات المكتوبة وغير المكتوبة، بأن الشريعة هي المصدر الرئيسي للتشريع، وأخذت العهود بين الشعب والمرشحين لتحقيق هذه الشعارات، وما زلنا - بعد اختيار الشعب لنا - نسأل عن الوعد الذي قطعناه على أنفسنا، فوفاء بالوعد نتقدم بطلب استكمال التطبيق للشريعة الإسلامية، لنكون عند حسن الظن.

٤- أما المنطلق الدستوري فبيانه، أن أول يوم جئنا فيه هذه القاعة أقسمنا بالله العظيم ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦] على احترام الدستور والقانون، ومن البر بهذا القسم أن نعمل على تطبيق الدستور والقانون حتى لا يظل مجرد شعار كغيره من الشعارات، وعلى الأخص ما جاء في مادته الثانية المتعلقة بالتشريع، ومادته الثانية عشرة المتعلقة بالسلوك، حيث نصت على أن المجتمع والدولة مطالبان بالالتزام بمبادئ الأخلاق، والتمكين للتقاليد المصرية الأصلية.

وإذا تجاوزنا الحديث عن واجب المجتمع، الذي لا نعفيه من المسئولية في هذا المقام، وهي مسئولية موزعة كما نص الحديث

الشريف: «**كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته...**»[1]، فنحن كنواب عن المجتمع، نرى أن بعض الأجهزة لا تعطي الرعاية الكافية للتربية الدينية والخلقية والوطنية، كنص الدستور، بل إن بعضها قد يسير في خط مضاد، مما أدى إلى كثرة الشكاوى من استيلائها على مشاعر الكبار والصغار على السواء، وتركت بصمتها على سلوكهم جميعًا، حيث اقتحمت عليهم أبوابهم، ولاحقتهم في مخادعهم طوعًا أو كرهًا، ومن هنا نطالب بتطبيق هاتين المادتين بوجه خاص.

تلك هي مبررات المناداة باستكمال التطبيق للشريعة الإسلامية. واسمحوا لي في دقائق أن أتحدث عن أهمية التطبيق نفسه – مع يقيني بأن جميع المواطنين أو أكثرهم يحرص على هذا التطبيق، ويعلم كل العلم أن السعادة كل السعادة في التمسك بالدين.

إن كل عمل يحتاج في تطبيقه إلى أمرين: أولهما وجود المقتضى، والثاني عدم المانع، والمقتضى للتطبيق ليس واحدًا، بل مقتضيات عدة، نكتفي منها بمقتض ديني، ومقتض تاريخي، ومقتض وطني.

١ – فالمقتضى الديني هو أمر اللّه باتباع أمره وطاعته، والتحذير من مخالفته ومعصيته، والنصوص في ذلك أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر، نكتفي منها بما يلي:

في الأمر قال اللّه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:

(١) رواه البخاري ومسلم.

٣] وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥] وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩] وقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٢] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وفي التحذير قال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] ونحن لا نحب أن نكون ممن شملهم عموم الآية الكريمة أو شبيهين بمن نزلت فيهم خاصة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وكذلك قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى

ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ ، ٦١].

٢- والمقتضى التاريخي، أن بلدنا منذ عهد الفراعنة نرى على حضارتها مسحة دينية، بنيت من أجلها الأهرام، وحنطت الأجسام، ودفنت معها بعض الأطعمة، ليقوم الميت بعد الموت ويتمتع بعد المساءلة، والحساب والميزان... ولا عجب في ذلك، فقد ولد وأرسل فيها نبي من أقدم الأنبياء، هو إدريس عليه السلام ونشأ يوسف عليه السلام بمصر، وحكم ودعا إلى التوحيد: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] وولد فيها ونشأ وأرسل موسى وهارون عليهما السلام، وشرفها أيضًا سيدنا عيسى عليه السلام ووقف أتباعه وقفة الأبطال، ضد وثنية الرومان، واستشهد منهم كثيرون في الثمانينات من القرن الثالث الميلادي، ثم فتحوا صدورهم للعرب الفاتحين لما عرفوا عنهم من رحمة وعدل، وأطل على مصر نور الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا، وظلت بفضل الجامع الأزهر الشريف، حفيظة على الدين واللغة العربية، دراسة ونشرًا وممارسة، قوية عزيزة، ردت التتار على أعقابهم خاسرين في عين جالوت، وخلصت القدس من أيدي الصليبيين في حطين، ووقفت ضد الاستعمار صفًا واحدًا صامدة مقاومة، حتى رحل عنها، بفضل قوة الدين الذي غرس في النفوس تعشّق الحرية وحب الاستقلال ورفض الذل والهوان، وكان عبورها في أكتوبر المجيد تحت راية «الله أكبر» وهم صائمون.

إن أمة بهذا التاريخ الديني الطويل، يعز عليها أن يطغى عليها ما لا

يتلاءم مع شخصيتها المتميزة، ولا مع مركزها الأدبي بين دول العالم الإسلامي، ومن هنا كان الدين والتدين ضرورة، لا غنى عنها.

٣- أما المقتضى الوطني، فيبدو واضحًا في مثل واحد من أمثلة كثيرة، ذلك أن رخاء المجتمع الذي ننادي به اليوم، ونضع له الخطة تلو الخطة، أساسه تنمية موارد الثروة، وترشيد الاستهلاك، ولا يكون ذلك إلا بالانضباط وعدم التسيب، وهاتان الكلمتان ترجمة عصرية لكلمتي الطاعة وعدم المعصية، وهما جناحا التقوى، التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وذلك سلوك لا يقبل عند الله ولا يؤدي الغرض منه إلا إذا كان نابعًا من إيمان يرجى به الثواب على الطاعة، ويخشى العقاب على المعصية، وبتعاون الإيمان مع التقوى يكون الخير كله، وليست هذه النتيجة قرارًا أو وعدًا من شرق أو غرب، بل من رب الشرق والغرب جميعًا، وهو الله سبحانه حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والبركات بالجمع والتنكير شاملة عامة، تأكدت بالنص على أنها من السماء والأرض، أي من كل مكان وفي أي مجال. وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور: ٥٥] وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى

﴿ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦] وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] والنبي ﷺ قال: «**إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدا، كتاب الله وسنتي**»[(١)].

إن الأديان بوجه عام رسالات سماوية، تستهدف الإصلاح الشامل، وقد قال الله لآدم حين أهبطه إلى الأرض ليباشر مهمته: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧].

والإسلام بوجه خاص، رسالة كاملة وافية بكل مقومات السعادة. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

---

(١) رواه الحاكم وصححه.

وإذا عرفنا أن الإسلام يقدس العمل، ويرفع منزلة العاملين في أي قطاع من القطاعات، ويوزع المسئولية على كل المجتمع، عرفنا كيف يكون أثر تطبيق الشريعة في الرخاء الشامل، والنصوص في ذلك كثيرة.

تلك هي باختصار شديد المقتضيات لتطبيق الشريعة كاملًا، ولا أزعم - وهذا ما يجب أن يفهمه كل مسلم - أن كل المجتمعات الدينية - حتى في عصورها الزاهية - بلغت ذروة الكمال في التطبيق أو خلت من السلبيات، فالناس بشر، أبوهم آدم الذي أكل من الشجرة لحكمة أرادها الله، وكل بني آدم خطاء كما جاء في الحديث، ولكن المجتمعات تتفاوت في هذا التطبيق، فإن لم تصل إلى الكمال، فحسبها أنها جاهدت لتصل، وكما جاء في الحديث: **«الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا...»**[1].

أما عدم المانع فيكفي أن أضع أمامكم هذه الحقائق:

١ - نحن نعتز بأننا نملك إصدار القرار بأنفسنا، وبكامل حريتنا، لا نتملق فيه أحدًا، ولا نرهب أي سلطان، وهذا أمر يجب أن يفاخر به كل مؤمن حر كريم ويقتضي ذلك أن نجعله واقعًا حيًا، ولا يبقى مجرد شعار نزهى به ونفاخر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا

---

(١) رواه البخاري.

﴿تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

٢- عندما قرر اللّه سبحانه عدم تمكين المشركين من دخول المسجد الحرام، مع أنهم كانوا ذوي نشاط اقتصادي يفيد منه أهل مكة، كما يفيد الناس من العملة الصعبة اليوم عن طريق السياحة والاتفاقات - قال اللّه مع ذلك: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةً﴾ أي: فقرا ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٢٨] فهو عليم بما نحتاجه، حكيم في وضع القرار المناسب، ذلك أن القيم لا تشترى بالمال، والدين يرخص في سبيله كل غال.

٣- نحن نملك رصيدًا كبيرًا من الحكمة، والخبرة والدقة، وحسن التخطيط، وبعد النظر، ما نتفادى به ردود فعل سيئة، أو أخطاء تحدث عند التطبيق، وأسلوب الإسلام معروف في كل تشريع من هذا القبيل.

٤- الإسلام ليس شبحًا مخيفًا، ولا سيفًا مصلتًا على رقاب الناس، سواء منهم من آمن ومن لم يؤمن، فهو مع المؤمنين يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وفي الحديث الشريف: «**ادرءوا الحدود بالشبهات**»(١)، ومع غيرهم دين عدل وإنصاف وتسامح في أعلى الدرجات، فقد نعم في ظله كل صاحب فكر وعقيدة، في حدود الحفاظ على أمن المجتمع وسلامته، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩] وقال: ﴿فَمَا

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل.

﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] وقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] وأوجب على المؤمنين أن يحترموا كل الرسل ويؤمنوا بهم جميعًا ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وفي الحديث الصحيح: «**الأنبياء إخوة من علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم؛ لأنه ليس بيني وبينه نبي**»[١]، وحافظ على وحدة المجتمع لدرجة أنه ﷺ قال: «**من آذى ذميًا فأنا خصمه يوم القيامة**»[٢].

والأمثلة كثيرة في التاريخ، تؤكد الحرص على أمن المجتمع مهما تعددت أديانه، وتاريخ مصر بالذات، يشهد تعاونًا رائعًا في هذا المجال، ففي ثورة ١٩١٩ وقفت الأمة كلها أمام الاستعمار تطالب بالاستقلال، وفي عبور أكتوبر لم يفرق المدفع بين مواطن ومواطن، فالكل يدافعون عن النيل الذي شربوا من مائه جميعًا.

٥- فقه الشريعة أصبح ميسرًا للفهم والتطبيق، بعد أن قامت اللجان المختصة من فقهاء الشريعة والقانون، بوضع مشروعات القوانين على النظام الحديث، وأقرها الأزهر الشريف، وأودعت أمانة مجلس الشعب منذ مدة طويلة.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أبو داود بأوسع من ذلك.

وبعد: فاسمحوا لي أن أعرض أمامكم قضيتين: الأولى أناشد فيها القضاة والمستشارين أن ينظروا فيها بعقولهم وقلوبهم، وأن يحكموا فيها بعلمهم وضمائرهم معًا: رجل استقر في داره زمنًا طويلًا، ثم جاء غاصب جبار احتل داره وطرده منها، أو زاحمه فيها، ومعه وحش كاسر يرهب به أصحاب الدار، وكم شكا الرجل فلم تسمع شكواه؛ لأن الخصم في قضيته هو الحكم، وشاء اللّه أن يرحل هذا الطاغية وترك وحشه كأثر من آثاره، أليس من العدل أن ننصف صاحب الدار فنعيده إليها، أو نمكنه من التمتع بها، بدل أن نبقي على الوحش الذي رحل سيده، ونحاول استئناسه بتقليم أظافره، أو خلع أنيابه، أو نحاول حشد المبررات والحجج لنثبت شرعية احتلاله، ونعمل على استقراره بدل إزعاجه، إن السبع سبع ولو كلت مخالبه، وإن استقرار صاحب الدار أولى من استقرار الظالم الجبار.

والقضية الثانية أضعها أمام الكتاب، والفلاسفة والمصلحين، لبسنا ثوبًا منسوجًا من مادة مناسبة استراحت لها أجسامنا وهدأت أعصابنا، ثم أرغمنا على خلعه لنلبس ثوبًا من ألياف صناعية بموادها الكيماوية التي أثارت الحساسية في أجسامنا، والقلق في أعصابنا، وهو في الوقت نفسه لا يقي حرًا ولا يدفع بردًا، بل إنه لرقته وشفافيته كشف باسم الحرية عما كان ينبغي أن يستر، وأغرى باسم المدنية على ارتكاب السوء والمنكر، والآن وقد قامت أعظم بيوت الخبرة في الأزياء، بإعادة ثوبنا الأصلي على طراز جمع بين أصالة الجوهر وحسن المظهر، أفليس

من الخير أن نعود إليه، بدل أن نحاول تطويع أجسامنا وأعصابنا لتتلاءم مع الجديد الغريب، أو نعالج كيماوياته بما يمنع الحساسية، أو نرقعه بما يسد خروقه، إن الذي خلق أجسامنا بقدرته، ألبسنا الثوب المناسب بحكمته، فأين صنع البشر من صنع رب البشر، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فيا أيها الذين آمنوا استجيبوا للّه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم. وإذا كان فيما يحيينا انفتاح وتوازن، وحرية وتمدن، فليكن في إطار الدستور الذي أقررتموه في مادته الثانية، في إطار الدين، كما يقول رب العزة: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فكم من أخطاء ارتكبت باسم هذه الشعارات، وذلك لخطأ في الفهم، أو خطأ في التطبيق.

أستطيع الآن أن أقول بكل ارتياح: اللهم قد بلغنا فاشهد، ويا أيها الشعب قد وعدنا فأوفينا بالوعد، ويا أيها التاريخ سجل أن مصر ما زالت على العهد بها، مؤمنة بربها، متمسكة بدينها، لم تمت ضمائرها مهما اشتد الضغط، ولم يتبلد حسها حتى لو طال العهد، فالخير موجود فيها إلى يوم القيامة.

وأخيرًا، إذا كان لي من نصيحة فهي إلى الزملاء، ممثلي الشعب الذين يقننون للشعب، وهي أن يضعوا أمام أعينهم قول النبي ﷺ:

«من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»(١)، وأن يكونوا خير قدوة للشعب في صدق الالتزام، حتى تدوم الثقة بهم، وحتى يبارك الله جهودهم، إن التاريخ لا يرحم، والله على كل شيء شهيد.

وإذا كان لي من دعاء، فهو دعاء من الأعماق لمصرنا العزيزة، بدوام الرقي والازدهار، ولولاة أمورنا بكمال التوفيق والسداد، في ظل الشريعة الغراء والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

السبت: ١٤ من شعبان ١٤٠٥هـ (٤من مايو ١٩٨٥م)

عطية صقر

عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

وعضو مجلس الشعب

---

(١) رواه مسلم.

ومن الواجب عند بحث المجالس التشريعية لمسألة تتصل بالدين، أن تحال إلى لجنة دينية متخصصة، من أعضاء المجلس، أو من خارجه إن اقتضى الأمر، وأرى أن يكون رأيها ملزمًا لا يجوز رفضه، وليس استشاريًا يؤخذ به أو لا يؤخذ، لأي سبب من الأسباب، حتى لا تكون هناك ديكتاتورية مقنعة، ولا تجري عليه أحكام اللوائح من طلب التصويت عليه لأخذ رأي الأغلبية، فإن الأغلبية ليست كلها من أرباب الاختصاص في العلم الديني، وليست العبرة بالأغلبية العددية، ولكن الأغلبية المقبولة هي الأغلبية النوعية، وقد يؤخذ برأي الأغلبية داخل اللجنة التي تبحث القضية وتهيئها للعرض على المجلس للموافقة، استكمالًا للشكل القانوني في التصويت على المقترحات.

وأنبه إلى العناية ببحث كل مسألة بدقة وأناة، وبخاصة في المسائل الحيوية، وعلى رأسها المسائل الدينية، وأن يكون التصويت صحيحًا حسب النظام الموضوع في القانون واللائحة، وأن تكون هناك أولويات لبحث المسائل، يراعى فيها تقديم الأهم على المهم، والعناية به أكبر، وإذا تمكنت من النفوس رقابة اللّه، والإخلاص للمصلحة العامة، سارت الأمور في مجراها الطبيعي، وقوي الأمل في إنتاج مثمر.

إن من آداب الممارسة الديمقراطية، أن يحس المشرعون أن مهمتهم تكليف أكثر مما هي تشريف، والمسئولية فيها مضاعفة في الخير والشر، فينبغي البعد عن الظهور والمباهاة، وعن الجدل العقيم الذي قد يشجع عليه أحد أمرين، شهوة الكلام، والغلب على الخصم

المخالف، فمن أبرز صفات العقلاء، أنهم يسرون لظهور الحق، حتى لو كان على لسان غيرهم في مقام المناقشة والجدل؛ لأن غايتهم الأولى الوصول إلى الحق وكفى، ولله در الإمام الشافعي - وهو من هو في الذكاء وقوة الحجة - حيث يقول: «ما ناظرت أحدًا قط على الغلبة، وودت إذا ناظرت أحدًا أن يظهر الحق على يديه» ، ويقول أيضًا: «وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم، على ألا ينسب إلي حرف منه»[1].

إن قيمة عضو التشريع، هي فيما ينتهي إليه عمله من مشروعات مثمرة، لا في كثرة كلامه بداع وبدون داع، فذلك مرفوض دينًا وعرفًا، «جعجعة ولا أرى طحنًا» أرجو ألا يكرر عضو ما تحدث فيه غيره ووافقه عليه، فإن كانت هناك معارضة تكلم، وإن كان هناك جديد أضافه، وإلا فلا داعي للكلام، ولا يهمه أن يقول عنه من انتخبوه إن كلامه قليل، فيسحبوا منه الثقة عند عزمه على التشريح مرة أخرى، فالتكرار ضياع للوقت والجهد، وضياع للمال أيضًا، بكثرة الجلسات والاجتماعات، التي يمكن أن تتقلص إلى الحد الضروري لا غير، وحسب من لم يجد جديدًا يتكلم فيه أنه وافق على ما قيل، ففيه إبراء للذمة، وفيه مثوبة من الله، بحسب النية، فالأعمال بالنيات كما هو معروف.

وأنبه أيضًا إلى أن من ليس له اختصاص في بحث، أن يترك النقاش لغيره من ذوي الاختصاص فيه، فليس من المفروض في كل عضو أن يجيد الكلام في كل شيء، والأعضاء في هذه المجالس،

---

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص٢٤.

بل الناس جميعًا، متعاونون لخدمة الوطن، كل فيما يخصه، وبالقدر الذي يستطيعه، وفي كل مسألة يوجد أهل الذكر، والله يقول: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

كما أنبه إلى وجوب مراعاة المصلحة العامة في التشريع، لا مراعاة مصلحة خاصة، فردية أو حزبية، أوإقليمية مثلًا، والنظام الحزبي، أو المعارضة بوجه عام، وإن كانت مظهرًا من مظاهر الديمقراطية بالتعبير الحديث، فإن التعصب المغرض - أو الأعمى كما يقولون - يعمي صاحبه فلا يرى الحق، ويصمه فلا يسمع النصح، فهو يتلمس سقطات الغير ويجسمها، وينكر محاسنه ولو ظهرت كالشمس، وبالعكس يبرز محاسنه هو ويبالغ في تعظيمها، ويخفي سيئاته أو يحاول تبريرها، فالهم الأكبر عنده هو الانتصار على الخصم بأي طريق يكون، وتكون المصيبة أفدح إذا كان التعصب من أجل الهدم لذات الهدم، فالأمر لا يعدو أن يكون تنافسًا على المراكز والمناصب، أكثر مما هو تنافس على تقديم خدمة عامة.

وبهذه الصورة المنحرفة، تبعثر الجهود، ويقتل الوقت، وتبدد الأموال، وتزداد الهوة اتساعًا بين أبناء الوطن الواحد ونظل كما يقال: «محلك سر» وإن كان هناك تقدم فبطء شديد، أشبه بحركة السلحفاة، التي قد يكون لها عذرها؛ لأنها تعمر سنين طوالًا، فلا داعي للعجلة، أما نحن فأعمارنا قصيرة وآمالنا الطموحة كثيرة.

ومن هنا يجب السعي إليها حثيثًا، وإنجازها بسرعة، لتحقيق ما يمكن تحقيقه، فالإنسان في الدنيا ينبغي أن يكون كالغريب، إذا

أصبح فلا ينتظر المساء وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح.

إن الشعب الذي وضع في النواب ثقته ينتظر منهم الخير، وأي خير يرجى وراء هذا السلوك المنحرف؟: «على نفسها جنت براقش» لأنه هو الذي اختارهم فخيبوا آماله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، ينبغي أن تعطى المشكلات الحيوية الخطيرة من الاهتمام ما هو جدير بها، وهذا يقتضي - إلى جانب ما سبق ذكره - توحيد الجهود، وادخارها لبحث المسائل المشتركة، التي تحقق الخير للجميع، وفي هذا المقام يحضرني ما ذكره ابن الأثير في نهايته: «مادة أرس» من أن عاهل الروم انتهز فرصة الخلاف بين علي ومعاوية، فكتب إلى معاوية يعرض عليه مساعدته ضد خصمه، فتنبه معاوية إلى هذا الخبث، إذ كيف يعرض عليه عدوه هذه المساعدة، وهو يحتل أرضًا كانت تحت سلطانه؟ إنها ليست حبًا منه لمعاوية، ولكنها إذكاء لنار الفتنة لتأكل الأخضر واليابس، وتضعف الطرفين ليسهل عليه استرداد ما فقد منه.

كأن معاوية تذكر قصة الأسد الذي أراد أن يتغلب على ثورين: أحمر وأبيض، يزاحمانه في الغابة، فعرض على الأحمر أن يتعاونا على التخلص من الثور الأبيض، فوافق وأكله الأسد، وهنا أحس الأحمر أن الدائرة ستدور عليه لعدم وجود من يساعده ضد العدو المشترك، فانقض عليه وتخلص منه كما تخلص من الأول، وهنا شاع المثل: أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

كأن معاوية تذكر هذه الصورة، فرد على عاهل الروم بكتاب جاء فيه: اعلم أني وعليًا أخوان تنافسا فضلًا وتسابقا خيرًا، فإن لم تكف عن مقالتك لأجردن عليك جيشًا يكون أوله عندي (بالشام) وآخره عنده (بالعراق) حتى أورثه الأرض التي تحت قدميك.

إن نواب الشعب في المجالس التشريعية، هم في زماننا أهل الحل والعقد، كما كان العلماء - وهم فقهاء الدستور والقانون في الأزمنة الأولى- قد يكون بعضهم معينين من قبل ولي الأمر، والبعض الآخر مختارين من الشعب، بنظام الترشيح والانتخاب على أية صورة تكون، وهنا نوجه النظر إلى تعيين ذوي الكفاية علمًا وخلقًا، أو دراية وسلوكًا، وإلى انتخاب هذا النوع من الرجال على ضوء الإرشادات التي قررها الدين في هذا المجال.

وانطلاقًا من وجوب اختيار ذوي الكفاية نقول: أعضاء المجالس التشريعية هم أبناء الشعب، والشعب إذا تربى تربية دينية، سيتقدم منه للترشيح من يأنس من نفسه هذه الكفاية ، ولا يجرؤ غيره أن يقحم نفسه في عمل خطير، تحرج عنه كثيرون ممن يخشون اللّه، فلم يجدوا أنفسهم أهلًا للتشريع، وهذا الشعب المتدين هو الذي يختار وينتخب المرشح، ونؤكد هنا وجوب اختيار الكفء علمًا وخلقًا، فكرًا وسلوكًا، دون مراعاة لدوافع أخرى مادية أو أدبية، فهو شريك له فيما يناله، من ثواب إن وفق، ومن عقاب إن أخفق.

والتزامًا بأخلاق الدين، سيكون خوض المعركة في هذا الإطار، ولا

يقبل من المرشح أن يزيف على الشعب بذكر محاسنه، وكتمان مثالبه أو تبريرها، ولا أن يعد وعودًا مغرية، هو يعرف في قرارة نفسه أنها للاستهلاك لا للتحقيق، ولا أن يستعين بالخطباء والأجهزة التي تروج له بأساليبها المختلفة. والرسول ﷺ حذر من خطباء الفتنة، وهؤلاء يشبهونهم إن لم يكونوا هم، ستقرض شفاههم، وتشرشر أشداقهم في النار، والله سبحانه يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وعلى القائمين بتنظيم عملية الانتخاب أن يلتزموا الحيدة والنزاهة؛ لأنهم من الشعب المفروض فيه أنه متدين، لا يعرفون المحسوبية، ولا تغريهم المغريات، ولا ترهبهم التهديدات، فهم مسئولون أمام الله قبل أن يكونوا مسئولين أمام غيره، والوقوف الصامد أمام العوامل التي تؤثر على نزاهة الانتخاب له أثره الواضح في إحقاق الحق وفي المثوبة الكبرى عند الله، وأذكر هؤلاء جميعًا بقول النبي ﷺ: «**من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس**»[1].

إن الذين اختاروا هؤلاء المرشحين أنابوهم عنهم، وشهدوا لهم بالكفاية، فليعلموا أن عمل النائبين سينعكس عليهم؛ لأنهم وكلاء عنهم برضاهم، والراضي بعمل غيره شريك له في المسئولية، وقد

(١) رواه الترمذي وغيره بسند حسن.

زكوهم وشهدوا لهم، فلابد أن تقع التزكية موقعها، وأن تكون الشهادة صادقة مطابقة للحقيقة، وإلا كانت كذبًا وزورًا وتزييفًا وتضليلًا، وإذا أبى الشخص أن يوكل عنه شخصًا فلا إثم عليه في رفض اختياره، على أن يكون الرفض لأسباب مشروعة، حتى يعفيه اللَّه من المسئولية، وإذا طلب للشهادة بكفاية مرشح فليشهد حقًّا، وهو حر يختار دون حساسية، أو خوف، وليدون رأيه فيه قبولًا أو رفضًا، والامتناع عن ذلك فيه مساءلة وإذا كانت له مبررات فليستعد للإدلاء بها أمام اللَّه، وهو وحده الذي يقدر ويحكم، وليس هناك في الدين ما يمنع من عمل اجراءات لتنظيم هذه العملية، إذا استهدفت الخير والمصلحة العامة، واللَّه رقيب حسيب.

هذا، وإذا كان من مهمة السلطات التشريعية الرقابة على الجهاز التنفيذي، الذي يتولى تطبيق القوانين والقرارات التي تصدر عنها، فإن هذه الرقابة مظهر من مظاهر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإذا كان الشعب كله متضامنًا في هذه الرقابة بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وقوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1].

---

(١) رواه مسلم.

فإن المجالس التشريعية نائبة عن الشعب في هذه المهمة، كما أن لها أن تراقب الجهاز التنفيذي، بحكم الاهتمام بمصير القوانين والقرارات التي تصدر عنها، وستدور فيها مناقشات كثيرة، تثيرها تساؤلات واستجوابات.

* * *

الرقابة الشعبية

وإليكم مثلًا من الرقابة الشعبية على الجهاز التنفيذي قبل أن يكون ذلك من أعمال التشريع، أو الرأي العام المنظم في العصر الحديث.

يذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب ﷺ أرسل سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي واليًا على حمص، وكان من أجود الزهاد، فاجتمع عمر في إحدى جولاته بأهل حمص وقال لهم: يا أهل الكوفة كيف وجدتم عاملكم؟ وكان يقال لأهل حمص الكويفة الصغرى لشكايتهم عمالهم، فشكوا منه أربعة أمور، أولها أنه لا يخرج إلى الناس حتى يتعالى النهار، وثانيها أنه لا يجيب أحدًا بليل، وثالثها أن له يومًا من كل شهر لا يخرج إليهم فيه، ورابعها يغط الغطة بين الأنام، حتى تأخذه موتة، أي يغلب عليه النوم كأنه ميت، فجمع عمر بينه وبينهم، فأجابه وهو كاره لما يذكره بما يلي:

أما الأولى فليس لأهلي خادم، فأعجن عجيني وأجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ وأخرج إليهم، وأما الثانية فإني جعلت النهار لهم وجعلت الليل للّه، وأما الثالثة فإنه ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا ثياب لي بدلها، فأغسلها وأجلس

حتى تجف، ثم ألبسها وأخرج إليهم آخر النهار، وأما الرابعة فإني شهدت مصرع خبيب الأنصاري وقد بضعت قريش لحمه ثم حملوه على جذع ثم قالوا له: أتحب أن محمدًا مكانك؟ فقال: واللَّه ما أجدني في أهلي وأن محمدًا يشاك بشوكة ثم نادى: يا محمد، فما ذكرت ذلك اليوم وتركي لنصرته في تلك الحالة وأنا مشرك لا أومن باللَّه إلا ظننت أن اللَّه لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا. فتأخذني تلك الغطة، فكافأه عمر بألف دينار، ولكنه وزعها على الفقراء.

ولعل في هذه الحكاية ما يشير إلى وجوب الصدق في الإجابة على الأسئلة والاستجوابات، وإلى مكافأة من تثبت براءتهم عند المحاكمة كرد اعتبار، يشجع غيرهم على الإخلاص في العمل، ويضع حدًا للاتهامات قبل التحري والتثبت، واضعًا أمام أعين هؤلاء جميعًا قول اللَّه تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨] وقوله: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

من صور الشورى

وأخيرًا وليس آخرًا، أضع هذه الصورة أمام مجلس التشريع عند أخذ الأصوات على موضوع. فقد روى البخاري وغيره، أن وفد هوازن جاءوا إلى النبي ﷺ يطلبون رد ما غنمه المسلمون منهم، وبخاصة الأسرى، فخطب في أصحابه وقال: «**إن إخوانكم قد جاءوا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب - أي يوافق بطيب نفس - فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه مما يفيء الله علينا فليفعل**» فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله فقال ﷺ: «**إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرجع إلينا عرفاؤكم أمركم**» فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله فأخبروه أنهم قد طيبوا أو أذنوا[١].

إنها الشورى الحقة في أمر يهم الناس جميعًا، وبالتأكد ممن وافق ومن لم يوافق، وبنظام انتخاب الشعب عرفاء ووكلاء عنه ليقدموا رأيهم في المسائل الهامة.

٣- السلطة التنفيذية:

هذه السلطة حكومة أو جهاز إداري يعينه الحاكم العام، أو يكل إلى وزير مفوض عنه بتكوينه، ويكون مسئولًا أمامه وأمام الشعب في

(١) الزرقاني على المواهب ج٤ ص٣٠.

النظم الديمقراطية ذات المجالس التشريعية، وهو يتكون من وزارات ومؤسسات وإدارات ذات أسماء مختلفة، بها عاملون ينفذون ما يوكل إليهم من أمور تحت رقابة ومسئولية، والجميع في الحكم الإسلامي مسئولون أمام اللّه سبحانه.

إن كل هؤلاء العاملين بالجهاز التنفيذي، هم في الحقيقة خدام للشعب، لا سادة متسلطون، وعلى الشعب أن يعترف لهم بذلك، ويساعدهم على أداء مهمتهم، فالخير عائد على الجميع، وهنا يجب أن يختار ولي الأمر حكومته من ذوي الكفاية والدراية، ومن ذوي الأخلاق الكريمة، والماوردي في كتابه: «الأحكام السلطانية» وضع مواصفات لرئيس الحكومة «رئيس الوزراء» الذي هو واسطة بين الحاكم والشعب ينفذ سياسته، ويرفع إليه تقريرًا عما قام به، وتقوم هذه المواصفات في رأيه على أمور أهمها:

١- الأمانة حتى لا يخون فيما أؤتمن عليه، ولا يغش فيما يستنصح فيه، وهذا الشرط يقضي على الطمع في أموال الدولة، وعلى التحايل على الأخذ منها بصور ربما لا يدينها القانون الوضعي، كالمصاريف السرية، والمكافآت السخية، للأقارب وذوي الصلات المختلفة، عن أعمال قد تكون وهمية، والتهام المنح والدعم، والتلاعب بعطاءات المشروعات وغيرها.

ألا فليعلم كل مسئول أن الدرهم الذي ليس له مقابل مشروع هو سحت، وكل لحم نبت من سحت فالنار أولى به، إن عمر بن

عبد العزيز كان ينجز أعمالًا للدولة ليلًا على ضوء مصباح كان زيته من خزينة الدولة، فلما انتهى منها وأراد أن ينجز أعمالًا خاصة له أطفأ المصباح، حيث لا حق له في الانتفاع به لخاصة نفسه.

وعمر بن الخطاب ﷺ، طلبت منه بنته حفصة صلة من الأموال العامة فمنعها، فناشدته اللّه والرحم، فرد عليها: حق الرحم في مالي لا في مال المسلمين.

ولما خرج في رحلة رسمية إلى الشام، اعتمد في مال الدولة بعيرًا لا يستطيع أن يحمل راكبين معًا، وغلامًا كان يعتقب معه البعير، يركب مرحلة ويمشي أخرى، وحرم على نفسه أكل اللحم عام المجاعة، حتى شكت بطنه من الزيت الذي يأتدم به، وذلك حتى يشارك الناس أزمتهم، فيجتهد في إخراجهم منها؛ لأنه يحس بما يحسون، وقد جعل نفسه كالوصي على اليتيم: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

٢- الصدق، وذلك حتى يؤمن بخبره فيما يؤديه، ويعمل على قوله فيما ينهيه، وبهذا الشرط يقضي على التقارير الكاذبة، والدعاية المضللة، من أجل التملق أو ستر العيوب، يجعل فيها الخامل بطلا، ويصبح اللص شريفًا.

٣- قلة الطمع حتى لا يرتشي فيمالئ، ولا ينخدع فيتساهل، وبهذا الشرط تختفي الرشاوي والإكراميات، التي لا تكون إلا لغرض لا يتحقق بحكم القانون، ويقضي على المحسوبيات التي تولي من لا

يصلح، وتكيل له الترقيات والتشجيعات، وتسرق الملفات وتخفي شواهد الإثبات.

٤ - السلامة من العداوة والشحناء بينه وبين الناس، فالعداوة تصد عن العدل والتناصف، والشحناء تمنع من الرحمة والتعاطف.

٥ - قوة الذاكرة لما يؤديه إلى الحاكم وما يؤديه عنه؛ لأنه شاهد له وعليه، ولعل هذا الشرط كان قبل أن تخترع السجلات، وتنظم الدفاتر، وتنتشر التسجيلات.

٦- الذكاء والفطنة، حتى لا تدلس عليه الأمور فتشتبه، ولا تموه عليه فتلتبس، فلا يصح مع اشتباهها عزم، ولا يصلح مع التباسها حزم.

٧- ألا يكون من أهل الأهواء - الدينية والسياسية - فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل، ويتدلس عليه المحق من المبطل، فإن الهوى خادع للألباب، وصارف له عن الصواب، وفي المأثور: حبك الشيء يعمي ويصم.

٨- الحنكة والتجربة ، التي تؤديه إلى صحة الرأي، وصواب التدبير.

* * *

من الإصلاح الإداري

هذه المواصفات بالتعبير الجاري في زمانه، وبالمفهوم الذي يتناسب مع نظام الحكم في أيامه، يمكن أن تأخذ صبغة أخرى حديثة، وتتفرع عنها وقائع وأحداث كثيرة والمقام لا يتسع لشرح غوامضها التي لبست ثوبًا أدبيًا بمحسنات بديعية، وكلها تتركز في العلم والخلق، وهما أساس النجاح في كل عمل، وقد سبق قول سيدنا يوسف، يخاطب عزيز مصر، كما حكاه القرآن الكريم: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] وقول بنت شعيب له في استئجار موسى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

والرسول ﷺ لم يول أبا ذر الغفاري ولاية، وقال له: «**إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**»(١). وكان يختار الأكفاء للأعمال التي تناسبهم، لا دخل لقرابة أو صداقة، بل حتى للسبق في الإسلام وعمل البر، فذلك شيء والمهمة شيء آخر، لها من هو كفء لها.

لقد ولى أسامة بن زيد - وهو شاب - قيادة جيش سار إلى الشام وفيه علية القوم، وولى عمرو بن العاص على سرية ذات السلاسل؛ لأنه كفء لقيادتها، على الرغم من وجود من هو أقدم منه إسلامًا.

والأمثلة كثيرة في أيام الرسول، والخلافة الراشدة، ويجمع ذلك

(١) رواه البخاري ومسلم.

تلك العبارة الحديثة الجارية على الألسنة: وضع الشخص المناسب في المكان المناسب، وبدون ذلك تفسد الأمور حتمًا، وهو أمر مشاهد حتى في عالم الجماد، لو وضع الإنسان قطعة خشب أو حديد في غير مكانها المناسب من الآلة أو الجهاز لم تنتج النتيجة المطلوبة، إن لم تنتج أصلًا، أو لم يترتب عليها فساد وخسران، وقد صرح النبي ﷺ بذلك حين سئل عن قيام الساعة، وهي لا تقوم إلا عند فساد الحياة، وعدم الأمل في صلاحها، فقال: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**» قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[1].

ويوضح هذا ويحذر منه قوله أيضًا: «**من استعمل رجلاً من عصابة - جماعة - وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين**»[2]. والحديث الأول يبرز شرط الخبرة، والثاني يبرز شرط الخلق.

ومن المعلوم أن الوزارة أو المؤسسة سيعين لها رجال تقدر لها منازلهم، وتحدد اختصاصاتهم، ويخضعون للمراقبة والمساءلة، وهناك وصية عامة بالحد من الأجهزة ومن العاملين بها، فلسنا في حاجة إلى إنشاء مصالح أو إدارات، أو أقلام يحشد لها عدد كبير من العاملين، ويرصد في الميزانية مبلغ كبير، قد يكون خدمة لبعض ذوي الشأن، أو

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه الحاكم وصححه.

كمظهر من مظاهر الأبهة والسلطان والنفوذ، كإدارة عموم الزير - التي كتب عنها بعض الكتاب - لها مدير ووكيل وسكرتير، وكتاب وجهاز دعاية يعلن عن الخدمات التي تؤديها، في حين أن عاملًا واحدًا يمكنه أن ينظف الزير ويملأه، ويسقي العطاش منه دون كبير عناء، ولا حاجة إلى هذا الحشد الكبير من العاملين في الإدارة العامة للزير.

إن هذه المؤسسات في علاقتها مع ولي الأمر ناصحة مرشدة، تنفذ ما تراه صالحًا بعد الاتفاق عليه في حدود القانون وما يلزمه، وتعطي له الصورة الصحيحة للواقع فيما تحتاج وفيما تنتج، دون زيف بالإفراط أو التفريط وإذا لم تستطع القيام بمهمتها على الوجه المطلوب، كان من الخير لها أن تطلب إعفاءها قبل أن تعفى، فأثر ذلك معروف عند الناس على المستوى المحلي والعالمي، وطلب الإعفاء لعدم القدرة على الوفاء بالتزامات العمل دليل على صدق الرغبة في الإصلاح، وعلى الخوف من الله سبحانه، وذلك له أمثلة كثيرة في التاريخ.

٤- السلطة القضائية:

هذه السلطة يفترض فيها الكفاءة والنزاهة في أعلى مستوى؛ لأنها الجهة التي تحرس القانون، ويطمئن إليها المتحاكمون، لمنع الظلم وإنصاف المظلوم، وهي إذا فسدت كفاءة أو نزاهة، فسد صمام الأمن، وضاعت الحقوق، وسادت الفوضى، وانقلب المجتمع الإنساني إلى غابة، يأكل فيها القوي الضعيف.

والقاضي - وإن كان في نظام الحكم الإسلامي يحكم بما أنزل

الله، أو بما انتهى إليه نشاط السلطة التشريعية في الحق، هو في بعض الأحيان له اجتهاده، يشرع عند عدم مواتاة النص للقضية التي يفصل فيها.

وأحكام المحاكم تنزل أحيانًا منزلة القانون، ومن هنا كان مقام القاضي خطيرًا، ولخطورته تحرج عنه بعض كبار العلماء من سلف الأمة، ولهم في التملص منه حيل معقولة.

لقد عرض الخليفة العباسي، أبو جعفر المنصور، القضاء على الإمام أبي حنيفة فاعتذر، ونصحه بتقوى الله والخوف منه، وقال في اعتذاره: والله ما أنا مأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب؟ ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم من أجلك، ولا أصلح لذلك. وسئل عن قوله: لا أصلح، بأنه إن كان صادقًا فيه فالأمر واضح في عدم صلاحيته وإن كان كاذبًا فيه فالكاذب فقد شرط العدالة، والقاضي لابد أن يكون عدلًا لا يرتكب ما يتنافى مع النزاهة.

وجاء في القضاء وما يتصل به - إلى جانب ما سبق ذكره من قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] - قول النبي ﷺ: «**القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار**»[1].

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

والذين يساعدون القضاة بالادعاء والدفاع والشهادة وغير ذلك، نضع أمام أعينهم هذه النصوص، التي سبق ذكر بعضها، ولا بأس من إعادتها، هي قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٧ - ١٠٩] وقول النبي ﷺ: **«من خاصم في باطل وهو يعلم»** وفي رواية: أو أعان عليه **«لم يزل في سخط الله حتى ينزع»**(١) وقوله: **«إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم**

---

(١) رواه أبو داود والطبراني بإسناد جيد.

يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار»[1] وقوله في أكبر الكبائر: «**ألا وقول الزور وشهادة الزور»**[2] وما زال يكررها حتى ظن الصحابة أنه لا يسكت.

بعد ذكر ما تقدم من وسائل إصلاح الشعب والسلطة على ضوء الإسلام، أقول: لو فهمنا الدين فهمًا صحيحًا، وطبقناه تطبيقًا صحيحًا لتبين أن الإسلام فيه علاج لكل المشكلات، وأمكن تغيير وضعنا إلى وضع يليق بأمة هي خير أمة أخرجت للناس.

فلابد من التفكير العميق في استخدام الحماس، والعواطف والصحوة، استخدامًا صحيحًا، فما أكثر وأسهل أن تتردد الشعارات، ولكن الصعب هو كيف نصل إلى الإسلام علمًا وعملًا، لابد من التفكير المتأني للوصول إلى الهدف، بدون آثار ضارة، أو بأقل الأضرار، ولا يكفي أبدًا استخدام النصوص عند التطبيق بعيدًا عن مراعاة الظروف، فقد تكون هناك أمور مسلمة، لا يشك في صدقها أحد، كقوانين العلوم الرياضية مثلًا، لكن التمسك بحرفية النص دون إعمال العقل يمنع الإفادة منه.

* * *

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

النص والعقل

دخل مفتش فصلًا في مدرسة في حصة الحساب، فطرح سؤالًا على الأطفال يقول: شجرة عليها مائة عصفور، ضرب الصياد واحدًا منها ببندقيته فمات، فكم عصفورًا يبقى على الشجرة؟ فأجابوا جميعًا بسرعة: يبقى تسعة وتسعون، فنهض طفل نجيب وقال: لا يبقى على الشجرة شيء؛ لأنها خافت وطارت، إنه أدخل الظروف في إجابته فصحت، ولو أن السؤال كان: كم يبقى من العصافير على قيد الحياة؟ لكانت إجابات الأطفال صحيحة، لكن السؤال عن الذي يبقى على الشجرة ساكنًا، بعد سماع صوت البندقية.

أذكر أن بعض الحكام أراد أن يختار قائدًا لجيش يقوم بمهمة كبيرة، فجمع بعضًا منهم وأراد أن يختبر ذكاءهم في حسن التصرف، فوضع على وسط بساط كبير حجرًا، وقال لهم: من الذي يستطيع أن يأتي بهذا الحجر بسرعة، دون أن يمشي على البساط، أو يستعمل آية أداة؟ فعجزوا، إلا واحدًا، قام بلف البساط وطيه، حتى تناول الحجر، ثم أعاد البساط مفروشًا كما كان، فقالوا: إنها فكرة سهلة، فقال لهم الحاكم: نعم سهلة،

ولكن لم تخطر لكم بسرعة على بال، والمعارك تستدعي سرعة البديهة وحسن التصرف والتمرس على مواجهة الظروف الملحة.

نعم إن الجهد الحقيقي هو جهد الفكر الذي يوصل إلى الغاية من أقرب طريق، والمعارك الحربية قديمًا وحديثًا كان الانتصار فيها يعتمد إلى حد كبير على الفكر، والتخطيط السليم.

* * *

المسئولية مشتركة

أعود فأكرر أن التغيير الشامل مهمة جماعية، ومن الخطأ إلقاء التبعة على جهاز دون جهاز، فالمرض قد تكون له عدة أسباب، ولابد من الدقة في التشخيص، واشتراك أكثر من معالج، لمعرفة كل الأسباب، ومباشرة العلاج على ضوء هذه المعرفة.

أذكر بهذه المناسبة أن بعض الموجهين الرسميين للفكر، في بلد إسلامي، جمع صفوة من علماء الدين المشتغلين بالدعوة، وقال لهم: صلاح المجتمع وفساده يقع على عاتقكم، فحملهم وحدهم المسئولية، وقد يكون ذلك في ظاهره تقديرًا لدور العلماء واعترافًا بأثرهم الاجتماعي، لكن يخشى في النهاية التنكر لهم إن نجحت الحركة الموجهة، وينسب الفضل لغيرهم، وإن فشلت تحمل العلماء كل التبعة وعوملوا معاملة غير لائقة، والناس في التملص من المسئولية أذكياء، وفي إلقائها على غيرهم أشد ذكاء.

وقد علق بعض الحاضرين على ذلك وقال: إن هذا الكلام مبني على الأثر الذي يتردد كثيرًا على الألسنة: «**صنفان من الناس إذا صلحًا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس**» وعلى

الرغم من عدم صحة نسبته إلى النبي ﷺ فإن الواقع يؤيده، ذلك أن العلماء يشرعون والأمراء ينفذون.

انطلاقًا من ذلك قال المعلق: هذا الأثر يفيد اشتراك الجهتين بعضهما مع بعض في المسئولية، فالإصلاح جماعي، يتحمل كل فريق أوجهة بعضًا منه حسب اختصاصه وإمكاناته، ثم وضح ذلك بقوله: قد يكون الخطيب على المنبر يوم الجمعة يكاد بشفافية روحه وروعة أسلوبه، وقوة حجته، أن يأخذ بألباب السامعين ويعيش معهم دقائق في روضة من رياض الجنة، وفي متعة روحية كواحة في صحراء، تخفف ما يعانون من متاعب وآلام، فإذا انتهوا من الصلاة وخرجوا من المسجد وسمعوا أغنية ماجنة، أو رأوا صورة فاضحة، أو منظرًا خارجًا على الآداب يحميه حق الحرية، ذابت حلاوة الخطبة، وخفت صوت الموعظة، وراح الجو الروحي الممتع الذي كانوا يعيشون فيه من قبل، وبهذا يضيع في لحظة ما تعب الخطيب في غرسه، وهكذا شأن الدعاة والمربين، كلما بنوا هدم الآخرون، فلابد من تعاون الجميع على الإصلاح.

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وفي هذا الإطار يجب أن نؤمن بقول اللّه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] وبقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[الأنفال: ٢٥] وبالحديث الشريف الذي ضرب فيه الرسول ﷺ المثل بركاب السفينة، إن تعاونوا على منع من يريد خرقها نجوا جميعًا، وإن تركوه هلكوا جميعًا. لقد كانت الزوجة من نساء السلف تقول لزوجها إذا خرج يبتغي لهم رزقا: اتق الله وإياك والحرام، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

كنت ألقي موعظة بأحد المساجد، في مدينة ساحلية، يرتادها المصطافون من الجنسين، فهب أحد الحاضرين ينعي بشدة على تقصير العلماء والحكومة في منع ما يرتكب على الشواطئ من مخالفات أخلاقية، وبعد طول نقاش معه يحاول فيه أن يلقى التبعة كلها على العلماء والحكام، مع أن العلماء لا يملون من التنبيه على خطورة ذلك دينًا ودنيا، والحكام وضعوا ما وضعوا للحفاظ على الآداب، وإن كنا نريد مزيدًا من القرارات، ومزيدًا من إحكام الرقابة، لكني أحسست أن وراء هذه المحاولة سرًا، فسألته: أصدقني، أين زوجتك الآن؟ فقال باللغة العامية: «ما هو دا اللي بقول عليه» أي هذا هو الذي حملني على الكلام، إنه ينتظر مني - كعالم دين - أو من رجال الحكومة أن يحضروا له

زوجته التي لم يستطع أن يحقق ولايته عليها ومسئوليته عنها، ويلقي الحمل كله على غيره، أين هذا وأمثاله من قول النبي ﷺ: «**كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته. . .**»(١) إن العودة إلى الدين، والحل عن طريق الإسلام، لا يكون بالعجز ولا بالغباء، ولا بالمكر والدهاء، بل يكون بالقوة والذكاء، وبالصدق في دعوة الانتماء، وبالإخلاص والوفاء، وبالتعاون في السراء والضراء، الحل موجود، والذي لا يأخذ به إما جاهل، وإما عالم لا يعرف طريق الوصول إليه، وإما عالم به وبطريقه لكنه يأبى الأخذ به، تقليدًا للآباء، أو رضوخًا للعرف، أو عنادًا واستكبارًا، أو حرصًا على سلطان، أو خوفًا من حرمان.

والشعب كما قلت وأكرر - متضامن مع الحكومة في تطبيق قوانين الإصلاح، والقوانين الوضعية تحكم على الظواهر فقط، وبخاصة فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعي لتوفير الأمن على الحقوق، وضمان القيام بالواجبات، وهناك أمور بعيدة عن سلطان القانون، لا يفيد فيها إلا الدين، بما يشتمل عليه من

(١) رواه البخاري ومسلم.

إيمان بالله ومراقبته، وحرص على المصلحة العامة.

يحضرني في هذا المقام مثال، هو: لو فرض أن القوانين الوضعية قررت - طبقًا للشريعة - قطع يد السارق بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة، للتأكد من توافر أركان الجريمة، وعدم وجود شبهة تسقط الحد، فأراد شخص لا خلاق له أن ينتقم من آخر، فادعى عليه سرقة وأحضر شهود زور، واتخذ كل وسيلة لإثبات التهمة عليه، وعند التقاضي أقسم الشهود على قول الحق، وشهدوا بالسرقة، ولم ينجح الدفاع في نفي التهمة، فحكم القاضي بقطع يد المدعي عليه، وهو عند الله بريء منها، وما أوقع الظلم عليه إلا غيبة ضمير المدعي، وشهود الزور ومن يساعدونهم، وقد سبق الحديث الذي ينفر من التلفيق والادعاء الكاذب، والاعتماد على بلاغة المتخاصمين، وتضليل القضاء، بما يتفنن به من وسائل شكلية أو موضوعية، يعرفها جيدًا من يعيشون في جو المحاكم.

وبمناسبة التزوير والتلفيق، يجب على الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة، التي تكون الرأي العام أو تؤثر فيه، أن تكون صادقة في نقل الأخبار، مخلصة في التعليق عليها، أمينة في نشرها، مراقبة لربها في عنصر الإثارة، وبعث الاهتمام، والسبق

الصحفي، وما إلى ذلك مما يدعو إلى سوء الظن، وإلصاق التهم بالبرآء، تحت مظلة حرية الرأي والنقد والنشر، فالدين يحذر من ذلك، وقد سبقت النصوص التي تنهى عن الأخذ بما ليس للإنسان به علم، وعن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، واللَّه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[النور: ١٩] والنبي ﷺ يقول: «**أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة هو منها بريء يشينه بها في الدنيا كان حقًّا على اللَّه أن يذيبه يوم القيامة في النار حتى يأتي بنفاذ ما قال**»[(١)]. أي بالدليل على الاتهام.

وتتأكد هذه التوصية عند الحديث عن شخصيات لها احترامها، فلا تتلمس لهم السقطات، ولا تضخم الهنات، التي لا يسلم منها أحد، ففي الحديث: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا في الحدود**»[(٢)].

* * *

(١) رواه الطبراني بإسناد جيد.
(٢) رواه أحمد وأبو داود.

أهمية العمل

وفي صورة من الصور الضاغطة التي تتكتل الجهود لتغييرها والتخلص منها، كالمشكلة الاقتصادية، أقول: إن الحل الأمثل لها هو زيادة الإنتاج، وترشيد الاستهلاك، أما زيادة الإنتاج فتكون عن طريق العمل الدائب، في القطاعات الأساسية للموارد، الأفراد تتحرك وتكد، والمسئولون يساعدونهم ويمهدون وينظمون، وبالتعاون المخلص الخالي من الأنانية والانتهازية، يمكن الوصول إلى حل الأزمة أو تخفيفها على الأقل. يستوي في ذلك التعاون المحلي في الوطن الواحد، والتعاون العام بين الأوطان، فهناك إمكانات بشرية ومادية، يستطاع بالتعاون فيما بينها حل كثير من مشكلات الاقتصاد.

رحم اللَّه أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان يلتقط «الأنكاث» أي الخرق البالية في الطرقات، ويدفع بها إلى النساء في البيوت، لتعيد غزلها ونسجها من جديد، يمكن بها سد حاجة من الحاجات، بدل أن تضيع سدى، أو تصيب المارة بأذى، وبمثل هذه الصورة يستغل كل شيء للمصلحة، وتتحقق خدمة لأهل البيت يزجين بها وقت فراغهن، بدل القيل والقال،

والأفكار السوداء، وتتفادى به البطالة والتعطل، في الوقت الذي يحتاج فيه البلد إلى أقل جهد يبذل لتوفير الضروريات، ومحاولة الاكتفاء الذاتي بقدر المستطاع.

إن من المؤسف أن نرى في بعض المجتمعات تراخيًا وكسلًا، وقلة إنتاج في قطاعات مختلفة، تدفع إلى ذلك عوامل قد تكون صادقة وغير صادقة، والباحثون المختصون لهم دراساتهم في هذا المجال، يجب الاستفادة منها إن كانت هناك نية صادقة للاستفادة، وتقديم خدمة للمجتمع.

* * *

وفي المقابل نرى قيودًا بقوانين وقرارات جامدة، تحول دون التحرك للإنتاج، ويخشى القائمون عليها أو المنفذون لها تطويعها وتيسيرها، حتى لو كان في ذلك خسارة، فهي مقبولة في نظرهم، ما دامت في نطاق التعليمات، كالمكاتبات الرسمية الكثيرة، لتحصيل مبلغ زهيد تنفق عليه أضعافه مرات، وفي خضم هذه المأساة الإدارية، تعلو شعارات، وتصدر وعود كثيرة، نود لو تنزل إلى واقع التطبيق، حتى لا تنعدم أو تضعف الثقة بين الشعوب والحكومات، وعلى كلا الطرفين قسط من المسئولية، لا يجوز لأحد أن يتحايل للتخلص منها، ولا أن تتحول إلى ظاهرة في الوسط الذي يريد بجد وصدق أن يطور نفسه هذه العبارة «وأنا مالي».

* * *

الانتماء

لابد من العمل الجاد المكثف، لتنمية ما يطلق عليه «الانتماء الوطني» وإذا أريد بالوطن الوطن الإسلامي الكبير فالأمر واضح، وهو انتماء للإسلام نفسه، الذي كون الأمة الإسلامية، وإذا أريد به وطن كل دولة إسلامية، فالانتماء إليه يكون بتقديم كل ما يمكن من خير، وحمايته من كل سوء.

لقد أعطى الإسلام سلطة لأولي الأمر، أن يقرروا ما فيه مصلحة الأمة، إن لم يجدوه صريحًا في القرآن والسنة، وأمر بطاعتهم فيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[النساء: ٥٩] ويكثر ذلك في الأمور الدنيوية، على أن تكون في الإطار العام للدين، ولا تصادم أمرًا مقررًا فيه، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهم أعلم بشئون دنياهم، كما صح في الحديث الشريف.

والطاعة في هذا المجال يظهر فيها معنى الانتماء الوطني، فالتهرب من الجندية ومن الضرائب العادلة، ومخالفة قواعد المرور، أو القرارات الخاصة بمواعيد العمل، أو الإرشادات الخاصة بالأماكن العامة، كالحدائق والنوادي، كمنع التدخين وعدم التزاحم، وإلقاء القاذورات وغيرها، كل ذلك يتنافى مع الانتماء الوطني، ومع وجوب طاعة أولي الأمر فيه، بل إنها بالنظرة الدقيقة نجد النص عليها في مصادر الشريعة من مثل قول النبي ﷺ: **«لا ضرر ولا ضرار»**(١)

(١) رواه مالك في الموطأ وابن ماجه والدارقطني وهو حسن.

وقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1] ولشمول الهداية الدينية، يصعب الفصل التام بين أمور الدنيا والدين.

والانتماء إلى الوطن الأكبر يحتم علينا جميعًا أن نحس بواجبنا أولًا نحو الله، فهو المنطلق للإحساس بالواجبات الأخرى، وذلك بشكره سبحانه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فالشكر حارس النعم، مستوجب للمزيد كما قال رب العزة سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ولا يكون الشكر إلا بحسن استخدام النعمة، إنتاجًا واستهلاكًا.

وإلى جانب ما نشرته بخصوص ذلك في رسالتي: «الإسلام والتحرر من الجوع» التي نشرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف، في أكتوبر سنة ١٩٦٥م، توجد لدى المسلمين دراسات متخصصة في بيان أسباب الأزمات، واقتراح الحلول لها، والمهم هو الأخذ بها وتنفيذها، وأقصد بالتنفيذ التنفيذ الجاد المخلص، لا التنفيذ الشكلي، الذي تزداد فيه المصروفات، ويقل العائد منها بشكل غير مرضي، إن الفقر ليس في قلة الموارد ومصادر الاستغلال، فقد ملأ الله الأرض بما يكفي من وما يعيش عليها قبل أن يخلق الكائنات التي تعيش عليها بملايين السنين، فهو سبحانه الحكيم الرحيم، يتنزه عن أن يخلق خلقًا ليموتوا جوعًا.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ٩ -١١]، والواجب هو السعي الجاد للوصول إلى هذه الأقوات، واستخراجها من مخازنها، فهي مضمونة متوافرة، كما أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦]، ومع ذلك قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، فالجوع ناتج من فقر العقول وفتور الهمم، لا من فقر خزائن اللّه، فإن سطح الأرض إذا ضاق بغذاء من يعيش عليها - ولن يضيق أبدا - ففي البحار مصادر غذاء لا يتسع المجال لإيراد ما قاله المتخصصون عنها، ويا ليت المسلمين الآن يقلدون غيرهم في استغلال كل ما في الكون لتوفير الخير لهم، إن ضاقت بهم أوطانهم نزحوا إلى غيرها مهما بعدت الشقة، وزاحموا أهلها في خيراتهم بما يملكون من علم وخبرة.

تلك هي زيادة الإنتاج، العامل الأول في انفراج الأزمة، أما ترشيد الاستهلاك فلا يقل أهمية عنه، فالنتيجة الحتمية لهما إما الاكتفاء الذاتي، بحيث لا نحتاج إلى الاستدانة أو نقلل منها، وإما تحقيق فائض يدخر لمواصلة زيادة الإنتاج، والعبور من ضيق الضروريات إلى سعة الكماليات.

* * *

التنسيق بين الضروريات والكماليات

إن من المنطق المعكوس أن نشغل بالتوافه، أو الأمور الثانوية، وننفق عليها بسخاء، في الوقت الذي ننسى فيه الأساسيات، أو نقتر في الإنفاق عليها، ثم نستمرئ الاستدانة، وعواقبها وخيمة كما هو معروف، فقديمًا كان المعسر يسترق عند الدائن، يبيعه ويتصرف فيه كما يشاء، وحديثًا يسترق بنوع آخر من الرق، إن لم يكن استعمارًا سياسيًا مكشوفًا، فهو استعمار مقنع، يجعل المدين يدور في فلك الدائن، مسلوب الإرادة، أو مقيد الحرية في الفكر والسلوك.

إن الانطلاق وعدم التحكم في الشهوات إسراف أو تبذير، واللَّه لا يحب المسرفين ولا المبذرين، ومجاراة الأقوياء دون إمكانات تساعد على ذلك تَكَلُّفٌ حذر منه الإسلام، وأرشدنا إلى التصرف في نطاق الوسع والطاقة ومن هدي الرسول ﷺ أن ننظر في المظاهر المادية الكمالية إلى من هو دوننا، لا إلى من هو فوقنا، حتى لا نزدري نعمة اللَّه علينا[1] حتى الأمور الدينية لابد أن تراعي فيها الطاقة، فإن المنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى.

---

(١) رواه الترمذي.

وبالاهتمام بالمظاهر والشكليات ضاعت دول وأسر وجماعات وأفراد، قنعت من حياتها بالألقاب الجوفاء، كما قال الشاعر:

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد

وأنبه إلى رفض المقولة: «لا أعمل حتى يعمل غيري» هل أنا فقط الذي يطلب منه العمل، وعلي وحدي صلاح المجتمع؟ إن كل إنسان سيتحمل نتيجة عمله من خير أو شر، هكذا قال رب العزة: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، صحيح أن عمل الغير - وبخاصة من الكبار والمسئولين - يشجع على العمل للقدوة، وللقدوة تأثير كبير في المجالات المختلفة، لكن عدم عمل هؤلاء لا يبرر إهمال الآخرين، فالقدوة تشجع ولا تبرر التقصير: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٢].

* * *

الإخلاص في العمل

كذلك أنبه إلى رفض المقولة الشائعة على ألسنة العاملين بأجور مربوطة يرونها غير متناسبة مع متطلبات الحياة، وهي: «على قدر فلوسهم أعمل لهم» إن هذه العبارة ليست مقياسًا مضبوطًا، فكل إنسان يحدده كما يريد، وبمقتضى العقد لابد أن ينفذ العمل بأمانة وصدق، وإن كانت هناك مطالبة بالتوازن بين الجهد والأجر فلتكن بالحكمة، مع الإيمان بأن اللَّه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولا يجوز أن يكون التراخي والإهمال والتقصير مقابلًا لعدم الاستجابة للمطالب، فالاستجابة لها لا تكون إلا من ناتج العمل الجاد، حتى لا يلجأ إلى الاستدانة بأثقالها، ونتائجها الاقتصادية والسياسية الخطيرة، جاء في الحديث: «**إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها**» قالوا: يا رسول اللَّه كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: **تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون اللَّه الذي لكم**»[1].

وصدق الشاعر إذ يقول:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين اللَّه والناس

* * *

(١) رواه مسلم.

الحق والواجب

وأؤكد أن الحياة تقوم على قاعدة: «كل حق يقابله واجب» فلا ينبغي أن ننظر أولًا إلى الحق فنطالب به، قبل أن ننظر إلى الواجب فنؤديه، عندما نالت المرأة حقوقها التي كانت محرومة منها، نسيت الواجب عليها، ذلك الواجب الذي يعتبر كثمن يدفع في مقابل ما ملكته أو حصلت عليه، ومن الواجبات المفروضة عليها عند خروجها للعمل، عدم الإضرار بواجبها الأول نحو البيت، والتزامها بكل الآداب التي شرعها الدين، وهي معروفة لها تمامًا، ومن هنا صار الحق الذي حصلت عليه بدون الواجب المقابل، كالمال المسروق الذي لا يباركه اللَّه أولا، ولن تجني منه ثانيًا إلا سوءا لا يقتصر عليها وحدها، بل يتعداها إلى الأسرة والمجتمع كله.

وبخصوص العمل والإنتاج قدم الواجب عليك أولًا، ثم طالب بحقك، وفي المقابل أوصى الحديث الشريف، الطرف الآخر، بإنصاف من أدى الواجب، وبإعطائه أجره قبل أن يجف عرقه، فذلك يدعوه إلى حب العمل، والزيادة منه وإتقانه، وهذه هي حكمة الجزاء العادل في أمور الدنيا والدين، وبالتفاهم

المخلص والروح الطيبة بين الطرفين اللذين يعيشان في أسرة واحدة، يمكن أن تحل المشكلات، وتتفادى الأزمات، وأحذر ثم أحذر من اللجوء إلى الوسائل التخريبية، من أجل المطالبة بالحق، فلا يفعل ذلك إلا الشعوب الهمجية، الذين يخربون بيوتهم بأيديهم، ولنا في أسلوب بعض البلاد الشرقية الحديثة، مثل رائع في التفاني في العمل، والمطالبة الحكيمة بالحقوق دون تعطيل للإنتاج.

* * *

البناء قبل الهدم

ثم أنبه - وما أكثر ما أنبه - إلى وجوب البناء قبل الهدم، فكرًا وسلوكًا، وإلا تهيأت الفرصة للانحراف، والتغيير الصحيح يقوم على هدم الفاسد من أجل إيجاد صالح يحل محله، فلابد أن يكون الصالح في المتناول الفعلي، أو قريب غاية القرب، فالنفس لا تحتمل الفراغ، والرسول ﷺ في تطويره للمجتمع، حين أمسك بيده معولًا لهدم الفاسد، من الفكر والسلوك، أمسك بيده الأخرى أداة البناء الصالح، فكان نشاطه في خطين متوازيين في وقت واحد، بتوجيه من اللَّه سبحانه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[الجمعة: ٢].

إن الهدم من أجل الهدم وكفى، هو سياسة الحمقى، لابد من الاطمئنان إلى نظام بديل للنظام الفاسد في أي قطاع من القطاعات، إذا أردت أن تخلع عن ولدك ثوبًا غير صالح، فليكن الثوب الآخر الصالح حاضرًا، فالولد لا يتحمل العري، وبخاصة إذا كانت صحته ضعيفة، وتحاول بتغيير ملابسه أن تعالج ضعفه.

عندما حرم اللَّه سبحانه بعض الأشياء، كان البديل عنها من الحلال موجودًا، ولفت الأنظار إليه بتقديم ذكره، ليترك الإنسان الحرام عن طيب نفس، واثقًا بأن التحريم للمصلحة، قال تعالى في تحريم الربا: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[البقرة: ٢٧٥] وقال في تحريم بعض المطعومات: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]؛ لأن اللَّه قد أوحى إليه ببيان الحلال الكثير بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] إن الأمر يحتاج إلى دراسة واعية شاملة، لإيجاد البديل الجديد، قبل أن يضرب أول معول لهدم القديم.

* * *

القوة

إن العالم الآن يعيش بمنطق القوة، والقيم الأدبية لا تعيش إلا في حراسة القوة، وإلا ما قال اللّه سبحانه للمؤمنين بدينه الحق، من أجل حراسته من الأعداء: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقد قال الشاعر الحكيم:

ومن لم يذد عن حوضه بسنانه يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فلابد أن يتسلح المسلمون بمثل سلاح الأعداء المتربصين أو أشد، مع الاستعانة باللّه عن طريق الإيمان والتقوى، فلا يفل الحديد إلا الحديد، والدبلوماسية الضعيفة قل أن تثمر في هذا العصر، فمن لم يتذأب أكلته الذئاب، يقول الشاعر:

ومن رعى غنمًا في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

ويقول آخر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

إن الرسول ﷺ أمر المسلمين في عمرة القضية بعد صلح

الحديبية، أن يرملوا في الأشواط الأولى وهم يطوفون حول البيت، والرمل سرعة المشي مع تقارب الخطا، وذلك ليظهر لأهل مكة الذين وقفوا على سفح الجبل. أن حمى «يثرب» لم تضعف قوتهم كما كانوا يظنون، فلنبرهن للأعداء على أننا أقوياء، عملًا لا قولًا فقط، وذلك بالعمل الجاد المنتج في كل المجالات.

* * *

الوقت من ذهب

ولنعلم أن الوقت ثمين لا يجوز أن يضيع سدى، ولله در القائل:

من أمضى يومه في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد أثله، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه وظلم نفسه.

بعد هذا كله - وفي الجعبة كثير من حصاد السنين - أقول:

إن الأمة الإسلامية بدولها، وشعوبها وحكوماتها، لبنتها الأولى هي الإنسان، وبذرتها الحقيقية التي تنمو وتتفرع وتزهر وتثمر هي الإنسان، فإصلاحه لابد أن يكون في الموضع الأول من الاهتمام، والإصلاح لا يتم إلا عن طريق الدين، وصحة العقيدة وإخلاص العبادة، واستقامة السلوك الشخصي والاجتماعي، وذلك عن طريق العلم، تلقيًا ونشرًا وممارسة، وبهذا تطبق الشريعة التي ننادي بتطبيقها، لا نقصر ذلك على شخص معين، أو جهة خاصة، أو في حدود ضيقة.

* * *

الدين عصمة

وأؤكد أن الانطلاق في الإصلاح أو إرادة التغيير لابد أن ينطلق من الصلة باللَّه، فمن انقطعت صلته بربه لن ينجح في عمله، ومن تهاون في حق اللَّه فهو أشد تهاونًا في حق غيره، أعجبني في هذا المقام ما حكاه من أثق به، أن تاجرًا للجملة في «الخردوات» من الخواجات، كان يتعامل في أوائل هذا القرن، مع تجار التجزئة في المدينة، والقرى المجاورة لها، دون اهتمام بكتابة وثائق بينه وبينهم، اعتمادًا على الثقة، وإغراء لهم بالتعامل معه، وكان يعطيهم السلع مقدمًا، ويستوفي ثمنها بعد، فجاء إليه تاجر قروي ليأخذ سلعًا أخرى ويدفع ثمن السلع التي أخذها من قبل كالمعتاد، فاعتذر إلى الخواجة بأن نقوده سرقت في الطريق، ورجاه أن يعطيه بضاعة أخرى، حتى إذا باعها أحضر له ثمنها وثمن البضاعة الأولى، فأراد الخواجة أن يتثبت من صدق ادعائه سرقة نقوده، فهدأ روعه وهون عليه الأمر بعبارات مألوفة، وقدم له زجاجة مياه غازية يخفف بها من شدة الحر، وكان ذلك في نهار رمضان، فشربها دون تردد ولا مبالاة، ثم قال له الخواجة: عد إلى بلدك مع السلامة والعوض على اللَّه فيما عندك، ولن أتعامل معك بعد، فسأله التاجر لماذا؟ فقال: إذا كنت أكلت ربك وأفطرت في رمضان، فمن السهل عليك أن تأكل الخواجة. (المراد أكل الحق).

فالشاهد أن الذي لا ينطلق في الإصلاح من منطلق الدين لن يكتب له

النجاح الحقيقي، وما يرى من مظاهر الحضارة عند غير المؤمنين فمآلها إلى الخراب، وذلك لانعدام الضمير الديني، والشواهد على ذلك بارزة، وقد قال رب العزة عن الجبارين السابقين: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] وقال عن قارون الذي طلب منه أن يشكر الله على نعمته عليه: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٧، ٧٨].

وأكرر التذكير بقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤] لابد من تربية الضمير الديني، فالشكوى مرة من كثرة القرارات وتعدد اللجان، والتحايل على أخذ المال، والتباطؤ في التنفيذ، أو الغش فيه، ولا نتيجة معقولة من وراء ذلك كله.

وبعد:

فقد تقدمت بهذه الشعلة المضيئة لمعالم الطريق، لا لدنيا أصيبها، فأنا في إدبار عنها اليوم أو غدًا، وإنما هي واجب يفرضه الدين علي، ويحتمه الإشفاق على جيلنا الذي أرجو له كل خير، وأحمد الله على النعم التي غمرني الله بها، لا أبغي بعدها إلا الخاتمة الحسنى، وأشكره شكرًا جزيلًا على ما أولاني من تكريم لم أرق فيه ماء وجهي، ولم أبع من أجله كرامتي، فهو فضل منه ومنة.

وما كتبته هو كلمة حق اعتقدتها، وقد أكون مخطئا فيها أو في بعضها، وحسبي أنني اجتهدت، فما كان من صواب فهو من الله، وما كان من خطأ فهو مني، وأرجو من الله العفو عنه والمثوبة منه، إنها كلمة اعتصرتها من تجارب السنين، ومما وفقني للاطلاع عليه رب العالمين، لا يشينها ملق، ولا يشوبها حقد، ولا أخشى فيها لومة لائم، حاولت بها أن أكون في ركاب من قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

فإلى اللقاء أيها المسلمون وعدًا حقًّا أمام الله في ساحة القضاء يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] اللهم اغفر ذنوبي، واستر عيوبي، واختم لي بالخير يا رب العالمين.

آمين، والحمد لله رب العالمين

ولا أنسى قبل ختام كلمتي، أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى فضيلة الإمام الأكبر، الشيخ جاد الحق علي جاد الحق، شيخ الأزهر، على الأمر بإعادة طبع هذه الرسالة، مع توجيهاته الرشيدة، ونشرها على أوسع نطاق، لخدمة الدعوة الإسلامية، والتوعية الدينية الصحيحة.

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

عطية صقر

* * *

للتاريخ

الاسم: عطية محمد عطية صقر، واسم الشهرة: «عطية صقر».
جهة الميلاد: بهنا باي مركز الزقازيق شرقية.
تاريخ الميلاد: الأحد ٤ من المحرم ١٣٣٣ هجرية = ٢٢ من نوفمبر ١٩١٤م = ٢٣ من هاتور ١٦٣١ قبطية.
نشأته: حفظ القرآن الكريم وسنه تسع سنوات، وجوده بالأحكام وسنه عشر سنوات، والتحق بالمدرسة الأولية بالقرية، ثم بمعهد الزقازيق الديني سنة ١٩٢٨م وتخرج في كلية أصول الدين، وحصل منها على الشهادة العالية سنة ١٩٤١م، والتحق بتخصص الوعظ، وحصل منه على شهادة العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد سنة ١٩٤٣م وكان ترتيبه فيهما الأول.
عمله: عين بالأوقاف فور تخرجه، إمامًا وخطيبًا ومدرسًا، بمسجد عبد الكريم الأحمدي، بباب الشعرية بالقاهرة، في ١٦ من أغسطس سنة ١٩٤٣، ونقل إلى مسجد الأربعين البحري بالجيزة: «عمار بن ياسر حاليًا» في فبراير سنة ١٩٤٤م، ثم عين واعظًا بالأزهر سنة ١٩٤٥م في طهطا جرجاوية، ثم في السويس، ثم في رأس غارب بالبحر الأحمر، ثم في القاهرة، ورقي إلى مفتش، ثم مراقب عام بالوعظ، حتى أحيل إلى التقاعد في نوفمبر سنة ١٩٧٩م، وعمل في أثناء ذلك مترجمًا للغة الفرنسية بمراقبة البحوث والثقافة بالأزهر

سنة ١٩٥٥م، ووكيلاً لإدارة البعوث سنة ١٩٦٩م ومدرسًا بالقسم العالي للدراسات الإسلامية والعربية بالأزهر، ومديرًا لمكتب شيخ الأزهر سنة ١٩٧٠م وأمينًا مساعدًا لمجمع البحوث الإسلامية.

وبعد التقاعد، عمل مستشارًا لوزير الأوقاف، وعضوًا بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضوًا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ورئيسًا للجنة الفتوى، وانتخب عضوًا بمجلس الشعب سنة ١٩٨٤م وعين عضوًا بمجلس الشورى سنة ١٩٨٩م، ومديرًا للمركز الدولي للسنة والسيرة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالأوقاف سنة ١٩٩١م.

وفي مجال النشاط الخارجي: تعاقد مع وزارة الأوقاف بالكويت سنة ١٩٧٢م لمدة سبع سنوات، وسافر في رحلات إلى إيران، ثم أندونيسيا سنة ١٩٧١م وليبيا سنة ١٩٧٢م والبحرين سنة ١٩٧٦م والجزائر سنة ١٩٧٧م كما سافر في مهمة رسمية بعد التقاعد إلى السنغال، ونيجيريا، وبنين، والولايات المتحدة الأمريكية، وباكستان، وبنجلاديش، والعراق، وزار باريس، ولندن وماليزيا وبروناي وسنغافورة والاتحاد السوفيتي.

وفي مجال النشاط العلمي: يشارك في البرامج الدينية بالإذاعة والتليفزيون، وتنشر له الصحف والمجلات، ويقوم بالخطابة والوعظ، ويعقد الندوات في دور التعليم، والمؤسسات المختلفة، مع نشاطه في لجنة الفتوى، ومجمع البحوث الإسلامية، والمجلس الأعلى للشئون

الإسلامية، والرد على الاستفسارات الدينية تحريريًا وشفويًا.

حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٣م، وعلى نوط الامتياز من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٩م.

وله مؤلفات كثيرة منها:

١- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية.
٢- الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه.
٣- موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام «٦مجلدات».
٤- دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة.
٥- توجيهات دينية واجتماعية.
٦- بيان للناس عن التيارات الحديثة والمسائل الخلافية «مجلدان».
٧- س، ج للمرأة المسلمة «١٠٠ سؤال وجواب».
٨- المصطفون الأخيار «في الرد على شبهات حول الأنبياء».
٩- الإسلام في مواجهة التحديات.
١٠- الإسلام ومشكلات الحياة «مجموعة فتاوى».
١١- من نور القرآن الكريم «نماذج حية للربط بين الدين والحياة».
١٢- الإسلام دين العمل «العمل والعمال في نظر الإسلام».
١٣- منهج الإصلاح في دعوة محمد ﷺ.
١٤- الزكاة وآثارها الاجتماعية.
١٥- الإسلام والتحرر من الجوع.
١٦- الحجاب وعمل المرأة.

١٧- البابية والبهائية «تاريخًا ومذهبًا».
١٨- فن إلقاء الموعظة.
١٩- مختصر السيرة النبوية.
٢٠- من أدب الدعوة.
٢١- التعريف بالإسلام «رسالة مركزة ترجمت للإنجليزية والفرنسية».
٢٢- نظرات في التربية الإسلامية.
٢٣- التفرقة العنصرية.
٢٤- نظرة الإسلام إلى الرق.
٢٥- دولة العلم والإيمان.
٢٦- المحافظة على الأسرار.
٢٧- مغزى العبادات في الإسلام.
٢٨- الإسلام ومكافحة المخدرات.
٢٩- الإسلام هو الحل «المنهج السليم إلى صراط الله المستقيم».
٣٠- التدخين في نظر الإسلام.
٣١- الإباحة ومنزلتها في التشريع «تحت الطبع».
٣٢- منارات على الطريق، في الدين والأدب والاجتماع «عدة أجزاء».
٣٣- أحسن الكلام في الفتاوى والأحكام «عدة أجزاء».
٣٤- من علوم القرآن الكريم. «تحت الطبع».
٣٥- دليل الحاج. «خير رفيق إلى بيت الله العتيق».
٣٦- المسلمون في العالم.

الفهرس

رقم الإيداع : ٧٠٨٨ / ٢٠٠١
طبع بدار نوبار للطباعة